مظاهر الحياة الشعبية فى شعر شوقى

دكتور
الحسينى محمد إبراهيم الفقى
أستاذ مساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

العنوان
الزقازيق ــ تقسيم الحناوى ١٨ شارع الإمام الحسين
ت : ٠٥٥٢٢٩٢٨٨١ ــ ٠١٢٤٤٧٥١٤٩

مظاهر الحياة الشعبية فى شعر شوقى

دكتور
الحسينى محمد إبراهيم الفقى
أستاذ مساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

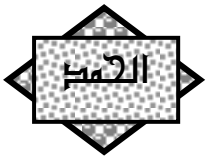

لله الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبى الأكرم، سيدنا محمد (ﷺ) وعلى آله وصحبه إلى يوم الجمع الأعظم ....

وبعد

هذه دراسة حول (مظاهر الحياة الشعبية فى شعر شوقى) ، وقد آثرت هذا الموضوع لندرة البحث فيه بحجة النشأة الأرستقراطية للشاعر، وأنه كان شاعر القصر، ولم يكن شاعر الشعب ٠

هذه الرؤية أغرتنى ببحث هذا الموضوع؛ إنصافا لأمير الشعراء، بتجلية مدى اهتمامه بالشعب فى شعره، وبالبحث والاستقراء تبين أنه كان شاعر الشعب فى جميع مراحل حياته٠

وقد تركزت تلك الدراسة فى أربعة مباحث، يسبقها مقدمة، وتمهيد، وتعقبها خاتمة، ثم ثبت بالمصادر والمراجع٠

أما التمهيد: فيحدثنا عن (مفهوم الشعبية فى شعر شوقى) وفيه استعرضت حقيقة تلك الشعبية طوال حياته بمراحلها الثلاث: بدءا بالقصر، ومرورا بالنفى، وانتهاء بالعودة حتى وافاه القدر٠

وأما المبحث الأول: فقد استعرضت فيه أهم مظاهر الشعبية فى مرحلة القصر ٠

وأما المبحث الثانى: فيوضح لنا أبرز مظاهر تلك الشعبية فى مرحلة النفى ٠

وأما المبحث الثالث: فيحدثنا عن تلك المظاهر فى مرحلة العودة.

وأما البحث الرابع : فقد انفرد ببعض المآخذ على الشاعر.

وأما الخاتمة : فقد تضمنت أهم النتائج والتوصيات التى أسفر عنها البحث .

وبعد: فإنى لا أدعى بتلك الدراسة أنى بلغت الغاية، أو جاوزت النهاية، وحسبى أننى طرقت بابا لمحه بعض الباحثين لمحا سريعا وكأنه عجلان عن عمد، فإن حالفنى التوفيق، فهذا من فضل الله، وإن كانت الأخرى فالكمال المطلق لله وحده، إنه نعم المولى ونعم النصير.

د/ الحسينى محمد إبراهيم الفقى

التمهيد
مفهوم الحياة الشعبية فى شعر شوقى

حين ننعم النظر فى حياته ومدى صلته بالشعب، نلحظ أن الشعبية بالنسبة له تختلف عن الشعبية بالنسبة لحافظ الذى ذاق طعم البؤس ، وعانى من الحرمان، فانصهر مع الشعب، وذاب مع همومه، أما شوقى فعلى الرغم من نشأته وحياته الأرستقراطية إلا أنه لم يتخل عن الشعب فى جميع مراحل حياته ٠

أما فى مرحلة القصر التى تمثل اثنين وعشرين عاما فى الفترة من: ١٨٩٢ ــ ١٩١٤م[١] فقد كان (رحمه الله) على صلة بالشعب، وإن كان "القصر قد كبله نوعا ما"[٢] إلا أن الشعب فى وجدانه وفى خاطره، ولم يكن فى هذه المرحلة ــ كما يرى البعض ــ "يحاول الاقتراب من الشعب"[٣] فالواقع غير ذلك، لم يعد الأمر مجرد محاولة، وإنما كان "وعيا ذاتيا واضحا بنبض الواقع الحياتى لمصر فى مختلف مراحلها"[٤]، وهذا هو المفهوم الحقيقى للشعبية فى حياته، وبالتصفح لديوانه "نجد أن عواطفه تصور فى صدق كل ما كان يضطرب فيه الشعب، وكل ما يحلم به من آمال، ليس هذا فحسب، بل رأينا هذه العواطف تتسع إلى ما يمكن أن نسميه عواطف شرقية"[٥]، فإذا كان الشعراء "فى مصر وفى سائر الأقطار العربية شعراء أنفسهم فإن شوقيا كان شاعر الأمة العربية"[٦]٠

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث : ١٧ ٠
(٢) مجلة فصول: ٢/ ٢٢٧ ــ الأستاذ/ حلمى بدير ــ مقال بعنوان: شعر الوجدان عند حافظ وشوقى ٠
(٣) شوقى شاعر العصر الحديث : ١١ ٠
(٤) مجلة فصول : ٢/ ٢٣٣ بتصرف ــ الأستاذ / حلمى بدير ، مقال بعنوان: شعر الوجدان عند حافظ وشوقى ٠
(٥) الأدب العربى المعاصر فى مصر : ٥٢، ٥٣ بتصرف ٠
(٦) الشوقيات : ٤/ ٤ بتصرف ــ المقدمة بقلم الأستاذ/ محمد سعيد العريان ــ طبعة بيروت ٠

وهذا يعنى أن الرجل "لم تكن همومه ذاتية، وإنما كانت جماعية، وهذا ما يعرف بأسلبة نظام الحياة"(١) .

وأما فى مرحلة النفى التى تمثل خمسة أعوام فقط فى الفترة من ١٩١٥ ــ قرب نهاية ١٩١٩م (٢) فقد كان النفى نقمة عليه، جلبت له هموم الغربة، وأحزان البعد عن الوطن، وها هو ذا يصور ذلك بقوله من بحر الكامل(٣):

لولا عوادى النفى أو عقباته ∴ والنفى حال من عذاب جهنم
لجمعت ألوان الحوادث صورة ∴ مثلت فيها صورة المستسلم
وحكيت فيها النيل كاظم غيظه ∴ وحكيته متغيظا لم يكظم

بيد أن هذه النقمة كانت نعمة على شعره شكلا ومضمونا، مما هيأه لإمارة الشعر، فرب ضارة نافعة، لقد زلزلت الآلام ربة الشعر فى نفسه، وألهبته الحنين إلى الوطن، والحديث عن ذكرياته فى ربوعه الفيحاء، وحينئذ أسعدته الظروف لدراسة الأدب العربى القديم، وحفظ روايته وشعرائه، فاكتملت له المقدرة اللغوية، إلى جانب المعانى المبتكرة، وكانت ثمرة ذلك أندلسياته الرائعة التى أسعدت الملايين من الشعب المصرى، والأمة العربية والإسلامية، وهكذا حياة الشعراء، ألم يثمر أملا، ومن ثم يصورها العباس بن الأحنف بقوله من بحر المنسرح(٤):

صرت كأنى ذبالة نصبت ∴ تضئ للناس وهى تحترق

لقد عاد الشاعر إلى شعبه إبان هذه المرحلة ، "ولم يعد إلى نفسه"(٥)؛ لأن نفسه لم تنسلخ عنه فى المرحلة السابقة، بيد أن

---

(١) مجلة فصول ٢/ ٢١٤ بتصرف ــ الأستاذة/ نبيلة إبراهيم ــ مقال بعنوان: شعبية شوقى وحافظ .
(٢) شوقى شاعر العصر الحديث : ١٧ .
(٣) الشوقيات: ٢/ ١٨٧ مطبعة بيروت.
(٤) ديوان العباس بن الأحنف: ٢٢١ .
(٥) حافظ وشوقى: ١٩٥ بتصرف.

العودة هنا كانت فى ثوبها الجديد، فإذا كان قد تمتع بالحرية نوعا ما فى رحاب القصر الذى اتخذه وسيلة لتحقيق آمال الشعب فى المرحلة السابقة ففى هذه المرحلة يعود مرة أخرى إلى شعبه، لكن بشكل آخر أكثر حرية، وأكثر انطلاقا، فقد آن الأوان للبلبل أن يصدح فى سماء الشعر، ويغرد بأندلسياته التى أكدت شعبيته على مدى الأيام ، وكر الدهور والأعوام.

وأما فى مرحلة العودة التى تمثل اثنى عشر عاما، وذلك فى الفترة من ١٩٢٠ ــ ١٩٣٢م[١] فإنه بمجرد أن وطئت قدماه أرض الوطن فوجئ بالحفاوة والترحاب ، لقد عاد شاعر الشعب من المنفى، وأحسن أبناء الشعب استقباله لدرجة أنهم "حملوه على الأعناق والدموع تترقرق فى عينيه"[٢] من فرط الفرح بلقاء الأحباب، إثر خمس سنوات من الغياب، ما دفعهم إلى ذلك سوى الحب والشعبية التى تمسك بها طوال حياته، فكان لسان حالهم فى التعبير عن آمالهم وآلامهم، صحيح أن حياته وإن كانت مرفهة، إلا أن الشعب كان دائما فى بؤرة مشاعره، وعمق أحاسيسه، يشاركه فى أفراحه وأتراحه.

ولا ريب أن فى ذلك الرد القاطع على من يصفونه إبان هذه المرحلة بأنه كان "قليل الاختلاط بالناس"[٣]، والبعض الآخر يسود رأيه الاضطراب، فبعد أن يصفه بأنه "أصبح ديمقراطيا إلى حد ما"[٤] يقرر أنه "أصبح ــ إلى حد بعيد ــ مشاركا للشعب المصرى، مختلطا بأبنائه فى النوادى والمقاهى والمطاعم، ويمشى معهم فى شوارع القاهرة، يتصفح الوجوه والنفوس"[٥].

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٧ .
(٢) أبى شوقى: ٩٠ .
(٣) فى الأدب الحديث : ٢/ ١٩١ .
(٤) شوقى شاعر العصر الحديث : ٣٧ بتصرف .
(٥) نفسه : ٢٧٨ بتصرف.

تلك هى الحقيقة التى تؤكد شعبيته قبل هذه المرحلة بعامة، وإبان هذه المرحلة بخاصة، ولاسيما أنه تخلص من القصر وقيوده، وبدأ "يذوق الآن لذة الحرية، ويظهر فيه عنصره العربى واليونانى، فهو يحب الهواء الطلق، وهو يحب الديمقراطية، وهو ينزل إلى الشارع، يشارك أبناء الشعب لذاتهم وآلامهم، ثم يرقى إلى سماء الشعر، فإذا هو ترجمانهم الصادق، ومرآتهم المجلوة الصافية"(١) وكان لتلك الشعبية العديد من المظاهر ، خلال مراحل حياته الثلاث كما يلى :

(١) حافظ وشوقى: ١٩٥ بتصرف.

المبحث الأول
مظاهر الحياة الشعبية فى مرحلة القصر

من خلال البحث والاستقراء لشعره ، خلال هذه المرحلة وجدت العديد من المظاهر التى تؤكد تلك الشعبية كما يلى:

١ـ الاهتمام بالجمهور وبالصحافة:

كان شوقى رحمه الله يتمتع بشعبية جارفة وحب متبادل بينه وبين الجمهور، وها هو ذا يعبر عن ذلك من خلال فهمه الواعى لرسالة الشعر أنه "مسئول عن تلك الهبة التى يؤتيها الله، وأنه لا يؤدى شكرها حتى يشاطر الناس خيراتها التى لا تحد ولا تنفد"(١).

وساعده على ذلك قدرته الفائقة على فهم مواقف الحياة التى تهم جماهير الشعب، والفهم العميق لما هو مشترك بين البشر،" فقد ظلت مشاكل أمته السياسية والاجتماعية مشتبكة بأعصابه ودمه إلى آخر لحظة فى حياته"(٢).

وإذا كان بعض النقاد قد حكم عليه بمدى بعده عن الجمهور بسبب نشأته الأرستقراطية، فإنه سرعان ما تراجع عن رأيه مقررا أنه "لابد أن نحدد من هذا القول ، وألا نطلقه إطلاقا، فإن شوقيا فى عام ١٨٩٨م طبع ديوانه الطبعة الأولى من أجل الجمهور، وكان ينشر شعره فى الصحف من أجل الجمهور، حتى نفس أميره كان يفكر فى الجمهور"(٣).

من أجل هذا كان يمرن نفسه "تمرينا واسعا على العناية بالجمهور، يريد أن يطلعه على شعره وفنه، فيختار له الموضوعات

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة: ٥٦ بتصرف .
(٢) مجلة فصول: ١/ ١٧ بتصرف ــ د/ محمد زكى العشماوى مقال بعنوان: دلائل القدرة البشرية عند شوقى .
(٣) الأدب العربى المعاصر فى مصر : ١١٧ بتصرف .

التى تهمه"[١]، وبهذا المنهج الذى اختطه لنفسه، أصبح "لا يشعر لنفسه ولا لأمرائه فحسب، كما كان يصنع الشاعر القديم، وإنما كان كل همه إرضاء الجمهور من الشعب، حتى يقع منه موقع الرضا والاستحسان"[٢].

وليس هذا المنهج بغريب على شاعرنا، حسبه فى ذلك أنه من أبرز رواد النهضة والإحياء الذين "تحول الشعر عندهم إلى الشعب، وصار الشاعر منهم لا تهمه نفسه بقدر ما تهمه الجماعة التى ينطق باسمها، وشاعرنا قد فنى فى جمهوره حتى لم يعد لحياته الشخصية أى وضوح فى دواوينه إلا بعض خيوط قليلة تظهر فى بعض الأطراف"[٣].

نخلص من هذا إلى أن الاهتمام بالجمهور كان يمثل "القبلة لشاعرنا، وقد تطور هذا الاهتمام مع الأحداث والأيام، ولا نبالغ إذا قلنا: إن كل شعر شوقى تقريبا أريد به الجمهور"[٤].

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للجمهور، فالصحافة والجمهور صنوان، "لأن الجمهور يطلع على الصحافة، وشوقى يتقدم للجمهور عن طريق هذه الصحافة"[٥].

وليس أدل على اهتمامه بالصحافة من تلك القصيدة التى اختصها بها، وقد استهلها بقوله من بحر المتقارب[٦]:

لكل زمان مضى آية ∴ وآية هذا الزمان الصحف
لسان البلاد ونبض العباد ∴ وكهف الحقوق وحرب الجنف
تسير مسير الضحى فى البلاد ∴ إذا العلم مزق فيها السدف
وتمشى تعلم فى أمة ∴ كثيرة من لا يخط الألف

(١) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٢٦، ١٢٩ بتصرف.
(٢) نفسه: ٢١، ٢٢ بتصرف .
(٣) الأدب العربى المعاصر فى مصر: ٥٠، ٥١ بتصرف.
(٤) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٤٩ بتصرف.
(٥) نفسه : ١٢٦ بتصرف.
(٦) الشوقيات : ١/ ١٥٩ طبعة بيروت.

هكذا يؤكد مدى أهمية الصحافة، فإنها معجزة هـذا الزمـان، وكأنه يمهد بهذا الإجمال لذكر الحيثيات، فهى ترجمان البلاد، ونبض الشعوب، والحرب الدءوب على الجور والفساد ، والنور الساطع الذى يمزق ظلام الجهل بين الأمم، وفى التنكير (لآية) فـى البيـت الأول، والتعريف بالإضافة فى البيت الثانى ما يفيد التعظيم والإشـادة بتلـك الصحافة، وفى التعبير بالمضارع (تسير ، تمشى) إيحاء بأن إسهامها فى محو الجهل أمر مستمر ومتجدد لا يتوقف عند زمن، وفى تمزيق العلم لظلام الجهل استعارة مكنية تؤكد ذلك وتجسده، وفـى الإيثـار للفعل (مزق) إيحاء بمدى الثورة العارمة التى تضطرم فى نفسه على الجهل، وبيان الأثر العظيم للعلم من خلال تلـك الصـحافة، كمـا أن الإيثار لبحر المتقارب يضفى لونا من الإيقاع السريع، الأمـر الـذى يتفق مع مهنة الصحافة، وسرعة الملاحقة للخبر، وفـى التسـكين للقافية إيحاء بالحسم، وكأن كل ما سبق من سمات إنما هـى أمـور حازمة لا يختلف عليها منصفان ٠

ومما يؤكد اهتمامه بالصحافة، إعجابه الشديد بمن لهم فضـل السبق فى النهوض بها، أمثال المرحوم: مصطفى كامل باشـا الـذى "كان يخصص لقصائده أسمى مكان فى اللواء"[١] ، وقد أشار شـوقى إلى ذلك فى رثائه له بقوله من بحر الكامل[٢] :

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى .:. وتجـل فـوق الـنيرات مكـانى

وكما أشاد بمؤسس جريدة اللواء، أشاد أيضا بالدوريات التـى تهتم بالشعر، ومنها مجلة (أبولو) الشهرية التى كان يصدرها دكتور أحمد زكى أبوشادى واصفا إياها بأنها "سوق عكاظ الذى يهفو نحوه البلغاء، والينبوع الصافى للنابغين من الأدبـاء، والمضـمار الـذى تتسابق فيه قوافى الشعراء"[٣]٠

(١) مصطفى كامل : ٣٧٩ ٠
(٢) الشوقيات: ٣/ ١٥٩ مطبعة بيروت ٠
(٣) نفسه : ٤/ ٨٦ مطبعة بيروت ٠

وهكذا يتضح لنا أن شوقيا كان شاعر الشعب من خلال هذا الاهتمام بالجمهور وبالصحافة التى كان الجمهور يطالع فيها أشعاره التى تعكس نبض إحساسه، وتعبر عن آماله وآلامه، وإذا كان الأمر كذلك، فهل كان شوقى شاعر الشعب أيضا حين اتجه بمدائحه إلى أصحاب العرش فى مصر، هذا ما سنتعرف عليه من خلال ما يلى:

٢ ـ المدح لأصحاب العرش من أجل الشعب:

لقد ربط شوقى نفسه بالقصر، ورعاه الخديو توفيق حين أرسله إلى فرنسا لدراسة الحقوق ، وودعه بهذه الكلمات "لا حاجة بك منذ اليوم إلى أهلك، فلا تعنتهم بطلب النقود، وأعنت أباك هذا الغنى، يعنى نفسه!" (١) ، ومن بعده جاء الخديو عباس الذى استقطبه حتى "صار من أقرب المقربين إليه"(٢)، من ثم دار شوقى فى فلكهما، يرضى لرضاهما، ويغضب لغضبهما، وليس معنى هذا أنه لا يبالى بالشعب، كلا، لقد كان شوقى "يفكر فى الشعب بجانب تفكيره فى خديوييه، ويحتال لذلك حيلا كثيرة، حتى يقع من نفس الشعب موقعا حسنا، ويظفر برضاه وإعجابه"(٣)، وهذا ــ لعمرى ــ ذكاء فطرى من الله به عليه، وقد مكنه ذلك من إجادة فن التعامل مع الآخر بدبلوماسية تعلى من قدره لدى جميع الأطراف.

من ذلك، أنه أثناء تهنئته الخديو توفيق بعيد الفطر، نجده ينتهز الفرصة فيعبر له عن مدى سعادة الشعب فى الأخذ بمبدأ الشورى فى الحكم، حيث يقول من بحر الكامل(٤):

فليبق بيتك وليدم ديوانه .:. وليحى جندك ولتعش شوراكا

---

(١) عن اللغة والأدب والنقد : ٢١٧ .
(٢) شعر شوقى الغنائى والمسرحى: ١١ .
(٣) الأدب العربى المعاصر فى مصر: ٣٧ بتصرف.
(٤) الشوقيات: ٤/ ٢٠٣ بتصرف ــ مطبعة بيروت.

وفى مقام آخر يزف إليه التهانى بمناسبة قدوم نجليه من سياحتهما بأوربا، وينتهز الفرصة متحايلا فيذكره بأياديه البيضاء على الشعب الذى يلهج لسانه دائما بالذكر والثناء، حيث يقول من بحر البسيط[1]:

ما بات يثنى على عليـاك إنسان ∴ إلا وأنت لعين الدهر إنسان

ويستمر فى القصيدة إلى أن يختمها بقوله:

أرى جنابك روضا للندى نضرا ∴ لأن غصن رجائى فيه ريان

نلاحظ أنه ركز فى البدء والختام على وصف ممدوحه بالندى والعطاء، فاستحق كل الشكر والثناء ، ليؤكد دبلوماسيته وإلحاحه على أنه شاعر الشعب حقا، فالشعب دائما فى بؤرة شعوره لا ينساه، وفى أية مناسبة يحتال لتحقيق ما يتمناه.

ففى مناسبة حج الخديو عباس يصر عامدا على أن يناديه باسم عمته فاطمة بنت الخديو إسماعيل، التى كانت سببا رئيسا فى إنشاء الجامعة المصرية القديمة التى يعود خيرها على الشعب، فيقول من بحر البسيط[2]:

دامت معاليك فينا يابن فاطمة ∴ ودام منكم لأفق البيت نبراس

وعندما تولد للخديو إحدى كريماته، ينتهز الفرصة ليؤكد مدى الصلة المتبادلة بينه وبين الشعب، مؤكدا أننا لسنا فى عيد واحد، وإنما فى ثلاثة أعياد: عيد فى السماء، وآخر فى الأرض، أما الثالث فهو عيد الشعب، بل الخلائق قاصيها ودانيها؛ ابتهاجا بتلك المناسبة السعيدة، حيث يقول من بحر البسيط[3]:

أنت البرية فاهنأ وهى أنت فمن ∴ دعاك يوما لتهنى فهو داعيها
عيد السماء وعيد الأرض بينهما ∴ عيد الخلائق قاصيها ودانيها
عباس عش لنفوس أنت طلبتها ∴ وأنت كل مراد من تناجيها

(١) الشوقيات: ٤/ ٢٠٦، ٢٠٧ بتصرف ــ مطبعة بيروت.
(٢) نفسه: ٤/ ٤٣ بتصرف ــ مطبعة بيروت .
(٣) نفسه: ٤/ ٢٠٨، ٢٠٩ بتصرف ــ مطبعة بيروت.

وهكذا يتجه الشاعر بمدائحه إلى أصحاب العرش فى مصر، وليس معنى ذلك أنه "لم يكن له إحساس ولا شعور مستقل"(١)، أو أنه كان "أسيرا للخديو لا ينطق إلا بما يشاء ويهوى"(٢)، أو أنه قد تبدل خلقه وأصبح "من الطيور الداجنة الأليفة التى لا تستطيع ارتفاعا ولا تحليقا فى الجو، والتى تنتظر الحب يلقى إليها من صاحبها فتعيش به هانئة راضية"(٣).

إن الشاعر برئ من ذلك كله، وحسبه "أنه كان يكره المدح الذى يغل المواهب، وينكره على الشعراء المتقدمين، غير أنه اضطر بحكم وظيفته فى القصر أن يسلك نفس المسلك"(٤)، ولا لوم عليه فى ذلك؛ لأنه ولد بباب إسماعيل، وتولى توفيق أمر تربيته وتعليمه بالخارج، وجعله عباس داعية له ولسياسته لدى الجمهور، من ثم اضطر الرجل اضطرارا أن يهديهم جميعا لآلئ ثنائه، وغرر مدائحه، بيد أن هذه المدائح كانت "بدافع تعلق الآمال بالحاكم، ورجاء أن يعمل لخدمة الوطن، باعتبار أنه قد كان فى هذه المرحلة يمثل مؤازرة الوطنيين وخصومة الاحتلال"(٥).

لقد كان الهدف من هذا الأسلوب "أن يرضى الرأى العام المصرى عنه وعن عباس، أما عنه فلأنه يغنى له عواطفه، وأما عن عباس فلأنه يصوره له أميرا ديمقراطيا يأخذ بالشورى فى حكمه، وهو عامل على أن يحقق لهذا الشعب كل أمانيه وآماله"(٦).

(١) شوقى شاعر العصر الحديث : ٢٠ بتصرف.
(٢) فصول فى الشعر ونقده: ٣٣٣ بتصرف.
(٣) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٧ .
(٤) حافظ وشوقى : ١٨٩ ، فصول فى الشعر ونقده: ٣٣٩ .
(٥) تطور الأدب الحديث فى مصر : ١١٦ بتصرف.
(٦) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٥٢ بتصرف.

ألا يدل هذا كله على أن شاعرنا كان شاعر الشعب، وبعد هذه المدائح التى أهداها لأصحاب العرش فى مصر من أجل الشعب، والتحقيق لآماله، نلحظه يتجه بمدائحه أيضا للأتراك من أجل الهدف ذاته، وهذا ما سنتعرف عليه من خلال ما يلى:

٣ ـ المدح للأتراك من أجل الشعب:

كما مدح شوقى خديوييه فى مصر، وقد لحظنا مدى حرصه على شعبيته، مدح أيضا الأتراك والخليفة فى الأستانة؛ تـوددا إلى خديوييه، وإلى الشعب بخاصة، والأمة الإسلامية بعامة، ولاسيما أنه عندما "احتلت انجلترا مصر، أحس المصريون بالتدخل فى شئونهم، ومن ثم اشتد عطفهم على تركيا كعاصمة للخلافة الإسلامية"(١).

من هذا المنطلق أخذ شوقى فى نظم قصائده؛ تغنيا بالترك وبأمجادهم "بدرجة تفوق تغنيه بأمجاد العرب ورسولهم الأمين، عليه الصلاة والتسليم"(٢)، "يريد بذلك أن يرضى سيده والشعوب الإسلامية"(٣) .

من هذه القصائد : قصائده عن الحرب العثمانية اليونانية، ورثاء مدينة أدرنة، وتحية الترك أيام حرب اليونان، وانتصارهم على اليونان(٤)، وها هو ذا يفصح عن عاطفته نحو الترك بقوله من بحر البسيط(٥):

الدهر يقظان والأحداث لم تنم ∴ فما رقادكم يا أشرف الأمم
يا فتية الترك حيا الله طلعتكم ∴ وصانكم وهداكم صادق الخدم
أنتم غد الملك والإسلام لا برحا ∴ منكم بخير غد فى المجد مبتسم

---

(١) الشوقيات: ١/ ٥ بتصرف ــ المقدمة بقلم د/ محمد حسين هيكل ــ طبعة بيروت .
(٢) نفسه: ١/ ١٤ بتصرف ــ طبعة بيروت.
(٣) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٢٤ بتصرف.
(٤) الشوقيات: ١/ ٤٢ ، ٥٩ ، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٨٠، مطبعة بيروت.
(٥) نفسه : ١/ ٢٢٥، ٢٢٦ بتصرف ــ مطبعة بيروت.

تحلكم مصر منها فى ضمائرها ∴ وتعلن الحب جما غير متهم
فنحن ـ إن بعدت دار وإن قربت ـ ∴ جاران فى الضاد أو فى البيت والحرم

نلاحظ مدى الحرص على إبراز المعانى وتقريرها فى ذهن المتلقى من خلال التصريع فى البيت الأول، والطباق فى الأخير، والتنوع بين الأساليب الخبرية والإنشائية، ثم يعبر عن مدى إخلاصه وحبه للأتراك من خلال الوصف بأنهم أشرف الأمم ، والاستخدام لأداة النداء (يا) يؤكد مدى البعد والعمق لمنزلتهم فى القلوب، وفى التقييد للحب بأنه غير متهم، إشارة إلى مدى الإخلاص الصادق الذى لا شك فيه، وفى إيثار التعبير باللغة والدين فى البيت الأخير إشارة إلى أنهما أقوى الروابط بين الشعوب مهما تناءت الأقطار، وبعدت الديار، وفى التعبير بالجمل الاسمية إشارة إلى ثبوت واستمرار جميع السمات التى يخلعها على الأتراك، كما أن فى التعبير بالجمل الفعلية، إشارة إلى أن هذه السمات حادثة ومتجددة ما دامت الأيام ، أما قوله: فما رقادكم يا أشرف الأمم، ففيه استفهام إنكارى تعجبى، يحث فيه الأتراك على بذل المزيد من الجهود؛ لخدمة الإسلام والمسلمين فى وقت "تطارد فيه الدول النصرانية دول الإسلام"(١)، ومن ثم كان التركيز على الشباب (يا فتية الترك)؛ لأنهم المستهدفون باعتبارهم ثروة الشعوب والأمل النابض بما يحقق عزتها وكرامتها.

وإذا كان شوقى قد أفاض فى مدح الأتراك؛ ليثبت أنه شاعر الشعب والعرب والمسلمين، فها هو ذا يلح على تلك الشعبية، ويهنئ الخليفة التركى بمناسبة العيد السعيد؛ ليعبر عن إرادة الشعب الذى يكن له كل الحب والتقدير، وأن الأمل معقود عليه فى صون حق مصر الذى أوشك على الضياع، لولا حمايته إياه بعد الله سبحانه، فيقول من بحر الوافر(٢):

(١) الشوقيات: ١/ ٥ بتصرف ــ المقدمة ــ مطبعة بيروت.
(٢) نفسه: ١/ ١٨٤ مطبعة مصر.

أبا القمرين عرشك فى قلوب ∴ تجاوز فى الولاء المستطاعا
ترى فيه الصيان لحق مصر ∴ فلولا العرش يعصمه لضاعا

٤ـ المدح للإنجليز من أجل الشعب:

بعد أن مدح شوقى الأتراك وخليفتهم، نلحظه يتجه بمدائحه نحو الإنجليز المحتلين لمصر، وهذا الأمر قد يبدو غريبا، ومن ثم استولت الدهشة على البعض، حين قرر أن من "أجرم الجرم أن يشيد الشاعر بخصوم وطنه؛ لأن هذه الإشادة تقتل الهمم، وتدعو إلى اليأس والاستسلام والرضا بما يسامه الشعب من خسف ومهانة"(١).

والحق أنه لا داعى للدهشة؛ لأن أصحاب العرش فى مصر، كانوا آنئذ على وفاق مع الإنجليز فى هذا التوقيت الذى مدحهم فيه، فمدحهم فيه إرضاء لخديوييه، وإرضاؤهما فيه مصلحة للشعب الذى يعلق الآمال على شوقى فى عرض مطالبه، وتحقيق آماله، وفى هذا تأكيد لشعبيته حتى فى مدحه لهؤلاء الذين ينهبون خيرات وثروات مصر.

ها هو ذا ينتهز مناسبة تأجيل تتويج الملك إدوارد السابع لإصابته بدمل ويشيد بقوة بريطانيا فيقول من بحر الطويل(٢):

أعد لها إدورد أعياد تاجه ∴ وما فى حساب الله ما هو حاسبه
إلى موكب لم تخرج الأرض مثله ∴ ولن يتهادى فوقها ما يقاربه
إذا سار فيه سارت الناس خلفه ∴ وشدت مفاوير الملوك ركائبه
تحيط به كالنمل فى البر خيله ∴ وتملأ آفاق البحار مراكبه
عجيب يرجى مشرطا أو يهابه ∴ من الغرب راجيه من الشرق هائبه؟

نلاحظ الإيثار لهاء السكت، وكأن فى هذا إشارة منه إلى إسكات جميع الأفواه التى قد تلومه على هذا الإطراء، وكأنه يؤكد بذلك أنه على حق فيما يصنع لا لشئ سوى التحقيق لمصالح الشعب، ولنفس الهدف نلحظه يثنى على الإنجليز عندما خلعوا عباسا، وولوا مكانه

(١) وطنية شوقى : ١٩٤ بتصرف .
(٢) الشوقيات: ١/ ٨١، ٨٢، ٨٤ بتصرف ــ مطبعة بيروت .

عمه السلطان حسين، ويصفهم بأنهم حلفاء مصر الأحرار، وأنهم أرقى الشعوب،وأعز الممالك سلطانا،حيث راعوا نظام الوراثة للعرش، وهذا ــ فى حد ذاته ــ عدل وسماح، فيقول من بحر الكامل[1]:

حلفاؤنا الأحرار إلا أنهم ∴ أرقى الشعوب عواطفا وميولا
أعلى من الرومان ذكرا فى الورى ∴ وأعز سلطانا وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ∴ ساروا سماحا فى البلاد عدولا
وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها ∴ ملكا عليهم صالحا مأمولا

ومما يؤكد هذا الإصرار على الشعبية، حرصه البالغ على أن يعرف الجميع ذلك، فأتى بألف الإطلاق والخروج عقب القافية الشديدة القوية؛ كى يظل دوى إصراره متصلا ؛ أملا منه أن يطرق سمع جميع الأجيال فى سائر البلدان، هذا فضلا عن الإيثار لبحر الكامل بجرسه القوى ورنينه الشديد؛ ليتناسب ذلك مع قوة الإصرار، وجلال الهدف من جهة ، ومن جهة أخرى نلحظه إثر ذلك يندد بهذا المستعمر الذى يمدحه، وكذلك بغيره لنفس الهدف، وهو أن أصحاب العرش لم يكونوا على وفاق مع المستعمر، ولا مع هذا الغير آنئذ، ومن ثم كان الحرص على إرضائهم؛ تحقيقا لمطالب الشعب وأمانيه، وذلك ما سنعرفه فيما يلى:

٥ ـ التنديد بالمستعمر وبغيره من أجل الشعب:

من أجل مطالب الشعب، ومن أجل أصحاب العرش الذين تتحقق على أيديهم هذه المطالب، ندد شوقى بالمستعمر، وبمن يحاول التملق له أيا كان منصبه، وبحكم الفرد المستبد حتى بالترك الذين ينتمى إليهم، كل هذا يؤكد أنه "لم يكن صنيعة القصر، فإنه فى ظلال ذلك القصر الذى احتوى شبابه، كان يندد بالمستعمر وبغيره، فى جرأة وشجاعة تحسب له"[2].

(١) الشوقيات: ١/ ٢١٥ ــ مطبعة مصر .
(٢) نظرات فى أدبنا المعاصر : ٤ بتصرف .

وتتمثل هذه الشجاعة فى وصمه مذهب المستعمر بأنه مذهب الإثم والرجس الذى يصطنعه الأقوياء، فيقول من بحر الخفيف[١]:

أحرام على بلابله الدو ∴ ح حلال للطير من كل جنس ؟
كل دار أحق بالأهل إلا ∴ فى خبيث من المذاهب رجس

وفى موقف آخر يعلن عن مدى درجة هذا البغض، فيشبه حكومة المستعمر يوم دخولها مصر بمرض السل الذى استحكم بالجسد المصرى، يستنزف خيراته، فيقول من بحر الكامل[٢]:

دخلت على حكم الوداد وشرعه ∴ مصرا فكانت كالسلال دخولا

هكذا يؤكد مدى سخطه من خلال تلك المقابلة الملحوظة بين الشطرين، وفى تشبيه تلك الحكومة بمرض السل، إيحاء بمدى البغض لها والتنفير منها، ثم يؤكد ذلك بالإيثار لبحر الكامل بما فيه من قوة رنين ، وشدة جرس، وأتى بالقافية مفتوحة؛ لما فى الفتح من قوة واستعلاء؛ ليتواءم كل ذلك مع قوة سخطه، ومدى إنكاره، وكأنه أحس أن هذا كله غير كاف فى التعبير عما فى نفسه، فأتى بألف الإطلاق والخروج؛ كى يظل صدى سخطه مدويا حتى يطرق سمع الشباب وسائر الأجيال فى كل زمان ومكان، هذه الشجاعة من الشاعر تحسب له، وهى ــ لعمرى ــ "رمية مسددة فى صدر الظلم ونحر الاستبداد، وستظل غصة يشجى بها بعض الحلوق"[٣].

وكما ندد بالمستعمر فى جرأة وشجاعة من أجل الشعب، لم يخجل أن يندد أيضا ببعض الفئات المصرية التى تعيش بين أفراد الشعب، وتنافق المستعمر فى ذل وهوان، فيقول من بحر الوافر[٤]:

شكرت الفلك يوم حويت رحلى ∴ فيا لمفارق شكر الغرابا
فأنت أرحتنى من كل أنف ∴ كأنف الميت فى النزع انتصابا

---

(١) الشوقيات : ٢/ ٤٦ مطبعة بيروت .
(٢) نفسه : ١/ ١٧٤ مطبعة بيروت .
(٣) الموازنة بين الشعراء : ١٥١ بتصرف.
(٤) الشوقيات : ١/ ٦٥ مطبعة بيروت.

ومنظر كل خوان يرانى ∴ بوجه كالبغى رمى النقابا

نلاحظ أن فى البيت الأول إيحاء بمدى شكره للباخرة التىأقلته إلى المنفى وأراحته من هؤلاء المنافقين الأذلاء ، ثم تزداد حدة سخطه على هؤلاء حين يجسد نفاقهم فى البيت الثانى حيث التظاهر بالشمم والإباء، ورفع الأنوف نحو السماء، والحق أنها مرفوعة فى غير كبرياء؛ لأنها كأنوف الموتى الضعفاء، ويأتى البيت الأخير ليجسد قمة انفعال الشاعر فى ثورته على هؤلاء حين يشبههم ــ فى الخيانة للوطن ــ أحقر تشبيه، فهم البغايا المجاهرات بالفحشاء،

وهكذا يبلغ شاعرنا فى درجة انفعاله إلى الذروة، حين ينـدد بالمستعمر وبمن ينافقه، وإذا بحثنا عن السبب الرئيس فى ذلك، وجدناه يتمثل فى إلحاحه الدائم على شعبيته، ومما يؤكد ذلك بغضه لنظام حكم الفرد للشعب، ويرى أنه أفسد أنواع الحكم، فيقول من بحر الكامل[1]:

شر الحكومة أن يساس بواحد ∴ فى الملك أقوام عداد رماله

هكذا بهاء السكت إيحاء بالجزم والقطع فيما يرى ويعتقد، ولم يكتف بذلك، بل يصب اللعنات على هذا المستبد، ويصف المحكومين بالذل والهوان ومعاناة التخلف حتى وإن كانوا يعيشون فى عصر التقدم والحضارة، فيقول من مجزوء الكامل[2]:

إن الزمان وأهله ∴ فرغا من الفرد اللعين
فإذا رأيت مشايخا ∴ أو فتية لك ساجدين
لاق الزمان تجددهم ∴ عن ركبه متخلفين
هم فى الأواخر مولدا ∴ وعقولهم فى الأولين !

ثم يؤكد شعبيته بأن الحكم قد صار للشعوب، ولاسيما أننا فى عصر الحضارة ، ذلك العصر الذى سما العلم فيه بالعقول، وصار الحكام ينزلون على حكم الرعية دون استبداد، فهذا قد ولى زمانه إلى غير رجعة، حيث يقول من بحر الوافر[3]:

---

(١) الشوقيات : ١/ ١٦٩ مطبعة بيروت .
(٢) نفسه : ٢/ ١٢١ مطبعة مصر.
(٣) نفسه : ١/ ٢٧٤ مطبعة بيروت

زمان الفرد يا فرعون ولى ∴ ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ∴ على حكم الرعية نازلينا

لهذا كله، لم يجد بدا من إهداء النصائح إلى الملوك والحكام بضرورة استرضاء الشعوب حتى يأمنوا شر ثورتها التى تفوق ثورة الوحوش الساكنة فى أسرها، فإن دولة الظلم لن تدوم، والدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، فيقول من بحر الخفيف[1]:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها ∴ فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسـ ∴ ـرفكيف الخلائق العقلاء ؟
يحسب الظالمون أن سيسودو ∴ ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائر مثلما جا ∴ روا وللدهر مثلهم أهواء

وحتى يؤكد مدى إخلاصه فى الشجاعة من أجل الشعب وأصحاب العرش، لم يجد أدنى حرج فى الهجاء حتى للأتراك أثناء غضب القصر عليهم، منددا بسياستهم التى تقوم على البطش والغرور، فيقول من بحر الكامل[2]:

رفعوا على السيف البناء فلم يدم ∴ ما للبناء على السيوف دوام
أبقى المالك ما المعارف أسه ∴ والعدل فيه حائط ودعام
إن الغرور إذا تملك أمة ∴ كالزهر يخفى الموت وهو زؤام

ومن الملاحظ أنه كان فى حرج من هذا الأمر بعد أن أهداهم غرر مدائحه قبل ذلك، لكن ماذا يفعل أمام إرضاء الشعب والقصر، ومما يؤكد هذا الحرج أن أقصى ما وصفهم به أنهم لم يطاعوا لعجزهم عن الإحسان إلى الشعب وإقناعه بالولاء، فيقول من بحر الخفيف[3]:

واذكر الترك إنهم لم يطاعوا ∴ فيرى الناس أحسنوا أم أساءوا

إذا كان شاعرنا قد أكد شعبيته من خلال كل ما سبق، فها هو ذا يؤكدها أيضا من خلال قوة العاطفة الدينية؛ إرضاء لجميع الشعوب الإسلامية، وهذا ما سنعرفه من خلال ما يلى:

---

(١) الشوقيات: ١/ ١٩، ٢٠ مطبعة بيروت ٠
(٢) نفسه : ١/ ٢٣٦ بتصرف ــ مطبعة بيروت ٠
(٣) نفسه : ١/ ٣٢، ٣٣ ــ مطبعة بيروت ٠

٦ ـ قوة العاطفة الدينية:

من خلال شعره نستطيع أن نحكم عليه بالتدين، بدليل وجود أشعار له فى الزهد تذكرنا بأبىالعتاهية، كقصيدته التى استهلها بقوله من بحر التقارب[١]:

وجدت الحياة طريق الزمر ∴ إلى بعثة وشئون أخر

وكثيرا ما كان يردد ــ فى الأغانى والأناشيد والحكايات التى أعدها للناشئة ــ كلمات "يا رب، ولفظ الجلالة، والإله، وذى الجلال، والخالق، والنبى، وجنة الخلد، والكوثر"[٢]، وعندما تعرض الحجاج للأذى عام ١٩٠٤م استصرخ الخليفة بضرورة توفير الأمان لهم، وذلك من خلال قصيدته التى استهلها بقوله من بحر البسيط[٣]:

ضج الحجاز وضج البيت والحرم ∴ واستصرخت ربها فى مكة الأمم

وعندما يعود الخديو عباس من الحج عام ١٩١٠م، يستقبله مهنئا وملتمسا العذر عن عدم تلبية دعوته بالحج معه؛ لمرض ألم به، فيقول من بحر الطويل[٤]:

دعانى إليك الصالح ابن محمد ∴ فكان جوابى صالح الدعوات
وقدمت أعذارى وذلى وخشيتى ∴ وجئت بضعفى شافعا وشكاتى

هذا عن صدى عاطفته الدينية على المستوى المحلى، وهى لا تقل عنها على المستوى العالمى، حيث نلحظه يسجل لهجته بانتصار الدولة العثمانية على اليونان؛ لأن فى هذا النصر عزة للإسلام وللمسلمين، وذلك من خلال قصيدته التى خاطب فيها السلطان عبدالحميد، وقد استهلها بقوله من بحر الطويل[٥]:

---

(١) الشوقيات: ٤/ ٩١، مطبعة بيروت.
(٢) ديوان شوقى ــ تحقيق د/ أحمد الحوفى : ٢/ ٢٤٧، ٢٥٠ ، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٣ ــ ٢٦٥، ٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦، ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١١ .
(٣) الشوقيات : ١/ ٢١١ مطبعة بيروت.
(٤) نفسه: ١/ ٩٥ بتصرف ــ مطبعة مصر.
(٥) نفسه: ١/ ٤٢ بتصرف ــ طبعة بيروت .

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ∴ وينصر دين الله أيان تضرب
وما السيف إلا آية الملك فى الورى ∴ ولا الأمر إلا للذى يتغلب
تنام خطوب الملك إن بات ساهرا ∴ وإن هو نام استيقظت تتألب

نلاحظ أن الشاعر تسيطر عليه عاطفة الإعجاب والفخر بهذا السلطان، ومن خلال تلك العاطفة نبعت الصور الملائمة : ففى التعبير بقوله: (يعلو الحق، تنام خطوب الملك، استيقظت تتألب) استعارات مكنية تحمل كل معانى التجسيم والتشخيص، للإيحاء بقوة هذا السلطان.

كما نلاحظ الإيثار لبحر الطويل بامتداده وثقله، وقوة جرسه، وشدة رنينه، وقد حالفه التوفيق فى الإيثار لحرف القافية (الباء) وما يتصف به من الشدة والقوة والجهر والانفجار، حتى حركة القافية (الضمة) بما فيها من القوة الفخامة، وكل هذا يتواءم مع المقام، حيث عاطفة الفخر والإعجاب بهذا السلطان.

كما تبدو البراعة فى الاستعانة بالتصريع فى البيت الأول، وبالطباق فى الأخير ؛ لتقوية المعنى وإبرازه وتوضيحه، ويلاحظ أن كل الأساليب فى الأبيات خبرية؛ لإفادة المدح والتعظيم، وأخيرا يستعين على تقوية المعنى بالتخصيص من خلال أساليب القصر المتمثلة فى قوله: (بسيفك يعلو الحق، وما السيف إلا آية الملك، ولا الأمر إلا للذى يتغلب).

وهكذا تتعاضد الموسيقى الخفية مع الخارجية؛ لإحداث نوع من "الانسجام، وهى أمور تتكافأ مع الطلاقة التى لا حد لها لنفس الشاعر، وخياله المطلق"(١).

هذا عن مدى تدينه، وأما عن أثر هذا التدين فى شعبيته، فقد مكنته عبقريته أن يستغل هذا اللون من "الشعر فى التغنى بعواطف

(١) اتجاهات النقد الأدبى العربى: ٢٧ .

المسلمين بشكل لم يتح لشاعر غيره ممن عاصروه أن يبلغ مبلغه، أو يتفوق تفوقه"[١].

وكما لحظنا لم يقتصر فى شعبيته على مصر فقط، بل كان "شاعر الشرق والإسلام والمسلمين فى العالم كله، ومن المعروف أن كل مسلم تعنيه وحدة المسلمين، كان يتجه نحو مكة والأستانة: يستمد من الأولى المدد الروحى، ومن الثانية السيف والمدفع"[٢]، من ثم راعى شوقى مشاعر المسلمين فاتجه بمدائحه إلى نفس الجهتين؛ ليمدح من خلالهما "الرسول الكريم ﷺ والخليفة العثمانى كزعيم روحى وسياسى للمسلمين"[٣].

أما بالنسبة لمدائحه النبوية فقد كان يدرك جيدا أن "اللحن الإسلامى يهم المسلمين فى جميع الأقطار، ومن ثم لجأ إلى هذا اللون؛ إرضاء لعواطف قرائه الدينية"[٤].

وأما بالنسبة للخليفة العثمانى السلطان عبدالحميد، فهو يمثل بالنسبة له اللواء الذى يجمع شمل المسلمين، ومما يؤكد شعبية شاعرنا أنه حين أعلن هذا الخليفة الدستور عام ١٩٠٨م، تحقيقا لمبدأ الشورى، بادره بالثناء مشيرا إلى أن هذا الحدث الجلل يعد فضلا أضيف إلى سائر أفضاله التى طوقت أعناق المسلمين، وذلك من خلال قصيدته التى يقول فيها من بحر البسيط[٥]:

أسدى إلينا أمير المؤمنين يدا ∴ جلت كما جل فى الأملاك مسديها

(١) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٢٩ بتصرف.
(٢) الشوقيات : ١/ ١٢ بتصرف ــ المقدمة ــ بقلم د/ محمد حسين هيكل طبعة بيروت .
(٣) شوقى شعره الإسلامى: ٢١٢ ، ٢١٣ بتصرف.
(٤) الأدب العربى المعاصر فى مصر: ١١٧، ١١٨ بتصرف.
(٥) الشوقيات: ١/ ٢٨٦ مطبعة بيروت .

ونلحظه فى قصيدة أخرى يعدد حسناته، ويصور التفاف الشعوب الإسلامية حوله، ويبرأ ممن لا يتقدم بالولاء إليه، وذلك من خلال قصيدته التى استهلها قائلا من بحر الخفيف[١]:

رضى المسلمون والإسلام ∴ فرع عثمان دم فداك الدوام

بهذا نستطيع أن نقرر أننا أمام شاعر حريص كل الحرص على شعبيته، شاعر "مؤمن، عامر النفس بالإيمان، مسلم يقدس أخوة المسلمين، ويجعل من دولة الخلافة قدسا تفيض عليه شئونه وحوادثه وحى الشعر وإلهامه"[٢].

هذا عن قوة العاطفة الدينية لدى الشاعر، ومدى أثرها فى تحقيق شعبيته، وإذا كان الأمر كذلك، فماذا عن قوة عاطفته الوطنية، ومدى أثرها فى تأكيد نفس الهدف، ذلك ما تفصح عنه الفكرة الآتية:

٧ ـ قوة العاطفة الوطنية:

يصف بعض النقاد وطنية شوقى بأنها "ظاهرية، بعيدة عن الإخلاص الحقيقى والعاطفة الصادقة، ويعلل ذلك بأنه لم يكن مصريا، وإنما هو تركى متمصر، فمصر التى كان ينظم فى تاريخها، ليست هى مصر الشعب، وإنما هى مصر الأسر المالكة، والعروش الحاكمة"[٣]، من أجل هذا ، كان "النبض المصرى عنده هادئا إلى حد ما بسبب حياته المترفة المستقرة"[٤].

والحق أن فى هذا الحكم مبالغة واضحة،والتعليل بعدم مصريته جانبه الصواب ، فالرجل كان مصرى الأبويين المباشرين لوجوده،

---

(١) الشوقيات: ١/ ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢ بتصرف مطبعة بيروت.
(٢) نفسه : ١/ ٦ المقدمة بقلم د/ محمد حسين هيكل طبعة بيروت.
(٣) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى:١٨١ــ١٨٣بتصرف.
(٤) مجلة فصول : ٢/ ٢٤٧ بتصرف ــ الأستاذ/ محمد عويس محمد ــ مقال بعنوان: الواقع الاجتماعى فى شعر حافظ وشوقى .

ولم يدخل عنصر التركية إلا فى أجداده، من ثم، كان كل همه فى هذه المرحلة مصر الشعب أولا وآخرا،وكان النبض المصرى فى وطنيته قويا، على الرغم من حياته المترفة، فالشعب هو شغله الشاغل.

كل هذا يؤكد أن مشاعره الوطنية كانت صادقة "مستخلصة من بلده وأبناء بلده، كما يستخلص العطر من الزهر، وهذا هو الدليل الصارخ على وطنيته"(١)، وليس أدل على ذلك من تأليفه رواياته الثلاث فى هذه المرحلة "على بك الكبير، ومصرع كليوباترا، وقمبيز، يحاول فيها جميعا إرضاء عواطف المصرية الوطنية"(٢) حتى بعد أن لقب بشاعر الأمير "لم يجار عباسا فى تنكره للحركة الوطنية، فبقى شعره ينهل من منبع الوطنية الصافى"(٣).

هذه الوطنية الصادقة، جعلته يدافع عن مصر وشعبها الأبى بشجاعة فائقة، وقد سجل ذلك حين خاطب مصر بقوله من بحر الوافر(٤):

وهبتك غير هياب يراعا ∴ أشد على العدو من الحسام

وعندما أهان (الكولونيل روزفلت) كرامة المصريين فى خطابه الذى ألقاه عام ١٩٠٤م، انتهز الأسد الهصور الفرصة؛ ليثأر لكرامتنا، موجها الخطاب له بصيغة الأمر؛ تهكما وازدراء أن يخلع النعل، ويخفض الطرف خاشعا حسيرا أمام حضارة الأجداد بأسوان، تلك الحضارة التى تمثل العرض والشرف الذى ينبغى أن يصان ويضحى من أجله بكل غال ونفيس، فيقول من بحر الخفيف(٥):

أيها المنتحى بأسوان دارا ∴ كالثريا تريد أن تنقضا

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٤٠، ١٤١ بتصرف.
(٢) مجلة فصول : ٢/ ١٧٢ د/ شوقى ضيف ــ مقال بعنوان: شوقى وحافظ وزعامة مصر الأدبية .
(٣) شعراء الوطنية فى مصر : ٥٥ بتصرف.
(٤) الشوقيات: ١/ ٢١١ مطبعة بيروت .
(٥) نفسه : ٢/ ٥٧ ، ٥٨ بتصرف، مطبعة بيروت.

اخلع النعل واخفض الطرف واخشع ∴ لا تحاول من آية الدهر غضا
وأنا المحتفى بتاريخ مصر ∴ من يصن مجد قومه صان عرضا

ومما يحسب له، أن وطنيته الصادقة لم تكن لمصر وحدها، بل شملت غيرها من الدول العربية، لقد أحب بغداد، وأشاد بها فى شعره، وخلع عليها لقب (دار السلام) التى تفوقت على (روما) فى الشرائع والبيان والعدل والقضاء، وفى الحكام قياصرة وغير قياصرة[١] وكان يأسى ويحزن إذا ما ادلهمت الخطوب بأية دولة عربية شقيقة، فحين ضرب الأسطول الإيطالى بيروت عام ١٩١٢م، وسقط العديد من الشهداء حول المساجد والكنائس والدور، اشتد حزنه، وتمنى لو طال العمر بأصحابها أن يذودوا عن الحمى، وذلك من خلال قصيدته التى استهلها بقوله من بحر الكامل[٢]:

بيروت مات الأسد حتف أنوفهم ∴ لم يشهروا سيفا ولم يحموك

نخلص من هذا أن شوقيا لم يكن فى وطنيته شاعر الشعب فقط إبان هذه المرحلة، وإنما كان شاعر العروبة كلها، يغنى المسلمين آلامهم وآمالهم بهذا الشعر الوطنى الخالد الذى لم ينظمه إلا "تلبية للجمهور، وتعبيرا عن الثورة المضطرمة فى نفسه"[٣]، فكان بحق "شاعر الجمهور وشاعر الشعب وشاعر الأمة التى يصور عواطفها فى شعره الوطنى قبل أن يصور عواطفه الخاصة التى لا تهمه"[٤].

إثر هذا العرض يتضح لنا مدى صدق شوقى فى وطنيته، وتأكيده لشعبيته، ولشدة حرصه على تلك الشعبية، نلحظه يدعو إلى الوحدة بين المسلمين والأقباط؛ حفاظا على أمن هذا الوطن، وحماية لمقدساته وسلامة أراضيه، ذلك ما تفصح عنه الفكرة الآتية.

---

(١) الشوقيات: ١/ ٢٠٥ مطبعة بيروت.
(٢) نفسه: ١/ ١٦٢ مطبعة بيروت .
(٣) الأدب العربى المعاصر فى مصر: ٥٤ .
(٤) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٣٩، ١٤٠ بتصرف ــ مطبعة بيروت .

٨ ـ الدعوة إلى الوحدة بين عنصرى الأمة:

مما يحمد لشوقى فى هذه المرحلة شدة حرصه على تأكيد شعبيته من خلال درره المتألقة التى أنشأها فى حث المصريين على الوحدة فيما بينهم مسلمين وأقباطا على السواء، وكثيرا ما أشاد برسول الله (عيسى) عليه السلام، وكأنما أراد بذلك إرضاء قرائه من كلتا الديانتين ، وكم له من وقفات يدعوهما فيها إلى الوحدة، ونبذ العصبية والفرقة، فيقول من بحر الوافر[١]:

أدار محمد وتراث عيسى ∴ لقد رضياك بينهما مشاعا
فهل نبذ التعصب فيك قوم ∴ يمد الجهل بينهم النزاعا؟

نلاحظ مدى حرصه على إبراز المعانى وتقريرها فى ذهن المتلقى من خلال الجمع بين النبيين الكريمين سيدنا محمد وعيسى عليهما السلام، ففى هذا إيحاء بالحرص على تحقيق الوحدة بين العنصرين، والعيش فى سلام ووئام، وقد أكد ذلك بالاستفهام فى البيت الثانى الذى أريد به الحث على نبذ التعصب.

ولعلها أول دعوة منه (رحمه الله) إلى اتحاد عنصرى هذه الأمة حين أقيم احتفل لتكريم الأديب واصف غالى عام ١٩٠٦م حيث يقول من بحر الخفيف[٢]:

يا بنى مصر لم أقل أمة الـ ∴ قبط فهذا تشبث بمحال
واحتيال على خيال من المجـ ∴ د ودعوى من العراض الطوال
إنما نحن مسلمين وقبطا ∴ أمة وحدت على الأجيال
سبق النيل بالأبوة فينا ∴ فهو أصل وآدم الجد تال
نحن من طينه الكريم على اللـ ∴ ـه ومن مائه القراح الزلال
مر ما مر من قرون علينا ∴ رسفا فى القيود والأغلال
وإلى الله من مشى بصليب ∴ فى يديه ومن مشى بهلال

أية لباقة وأي ذكاء نلحظه فى ترجمة هذه المشاعر نحو الإخوة الأقباط، حيث يتعمد الشاعر أن يوجه إليهم النداء (يا بنى مصر) دون

(١) الشوقيات: ١/ ١٥٤ مطبعة بيروت .
(٢) نفسه: ١/ ١٨٩ ، ١٩٠ بتصرف ــ مطبعة بيروت.

(يا أمة القبط)، فهذا ماض قد زال وانتهى أمده؛ ليشعرهم أننا جميعا أبناء وطن واحد، لا فرق فيه بين مسلم وقبطى، ثم يلفت الأنظار إلى أن قضية الوحدة بيننا، ليست أمرا مستحدثا، ولكنها متأصلة منذ عشرات القرون والأجيال، ويؤكد ذلك بأننا جميعا أبناء نيل واحد، كلنا من طينه ومن مائه، وجميعنا شركاء فى الآلام، وأن اختلاف العقيدة ينبغى ألا يكون سببا فى الانقسام، فكلا العنصرين يتجه إلى الواحد العلام.

وتأكيدا لهذا الهدف، نلحظه يردد كثيرا الدعوة إلى التسامح الدينى، فيقول من بحر البسيط[1]:

تسامح النفس معنى من مروءتها ∴ بل المروءة فى أسمى معانيها

ويوم أطلت الفتنة برأسها، تحاول أن تفرق وحدة الأمة حين قتل (بطرس غالى) بيد مسلم عام ١٩١٢م، كان شوقى فى مقدمة الشعراء الذين أكدوا على ضرورة تحقيق الوحدة بين العنصرين، مذكرا إياهما بوشائج الود والقربى، داعيا الجميع أن يتساقوا كئوس الحب، وأن يتناصروا لحماية الوطن، من خلال أبيات استهلها بقوله من بحر الطويل[2]:

تعالوا عسى نطوى الجفاء وعهده ∴ وننبذ أسباب الشقاق نواحيا

ويبدو هذا الامتزاج بين العنصرين بصورة أكثر جلاء فى قصيدته (مسجد أيا صوفيا) [3]، حيث يقول من بحر السريع[4]:

كنيسة صارت إلى مسجد ∴ هدية السيد للسيد
كانت لعيسى حرما فانتهت ∴ بنصرة الروح إلى أحمد

---

(١) الشوقيات : ١/ ٢٨٩ مطبعة بيروت .
(٢) نفسه: ٤/ ٥٥ مطبعة بيروت.
(٣) كان هذا المسجد كنيسة، ثم حولها الأتراك حين افتتحوا القسطنطينية إلى مسجد تقام فيه شعائر الإسلام ــ شوقى شاعر العصر الحديث: ١٣٠ .
(٤) الشوقيات: ٢/ ٢٥ مطبعة بيروت .

وهكذا نلحظ مدى حرصه على التأكيد لشعبيته، وإلحاحه الدءوب على إرضاء جمهوره من العنصرين، وأقوى دليل على ذلك قصيدته (مرحبا بالهلال) التى أنشأها بمناسبة رأس السنة الهجرية، وقد شاءت الأقدار أن يوافق هذا اليوم عيد الإخوة الأقباط، ويلاحظ أن الشاعر لم يؤثر المسلمين بقصيدته، بل راعى ــ بذكاء ودبلوماسية وأدب جم ــ مشاعر الإخوة المسيحيين، فكانت تلك القصيدة بمثابة المشاركة الإيجابية بين الجمهوريين؛ ليفوز فى النهاية برضا الطرفين، حيث يقول من بحر الكامل[1]:

عيد المسيح وعيد أحمد أقبلا ∴ يتباريان وضاءة وجمالا
ميلاد إحسان وهجرة سؤدد ∴ قد غيرا وجه البسيطة حالا

وإذا كان شاعرنا بهذه الدرجة من الإصرار على تأكيد شعبيته، فإننا نلحظه أخيرا يلح على تحقيق نفس الهدف، ويأبى إلا أن يشارك الشعب فى أفراحه وأحزانه، هذا ما سنتعرف عليه من خلال ما يلى:

٩ ـ مشاركة الشعب فى أفراحه وأحزانه:

يصف الدكتور طه حسين شوقيا بأنه "لم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم، وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان"[2]، والسبب فى ذلك "أن ثورة الوطن لم تكن قد التهبت نيرانها"[3].

وبالنظر فى شعر الرجل، نستطيع أن نقرر أنه ــ على الرغم من حياته المترفة ــ كان شديد الحرص على مشاركة الشعب فى أفراحه وأحزانه، ها هو ذا يعلن ذلك فى شعره، حيث يقول من بحر الخفيف[4]:

---

(١) الشوقيات: ١/ ١٨٦ مطبعة بيروت .
(٢) ديوان حافظ إبراهيم ــ المقدمة: ١/ ٥٠ .
(٣) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٣٤ .
(٤) الشوقيات: ٢/ ١٩٣ بتصرف ــ مطبعة بيروت.

كان شعرى الغناء فى فرح الشر ∴ ق وكان العزاء فى أحزانه

أما عن أفراحه فها هو ذا يعرب عن فرحته الكبرى يوم رحيل اللورد كرومر[١] عن البلاد، بعد أن سامها كل ألوان الذل والاستعباد، عندئذ شارك الشاعر الشعب بهجته بقصيدة عدد فيها مشاهد التاريخ الأسود فى عهد هذا الطاغية، وحسبه أن البلاد تشهدت يوم رحيله؛ ابتهاجا بوداعه لا كشخص ، ولكن كمرض ولى إلى غير رجعة، حيث يقول من بحر الكامل[٢]:

يا مالكا رق العباد بيأسه ∴ هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت ∴ فكأنك الداء العياء رحيلا

بسبب هذا الجور والاستعباد، كان الدستور حلما يراود الشاعر، وطالما تمنى أن يتحقق على أرض الواقع، ولم ينس أن يلمح إلى ذلك؛ أسوة بالدستور العثمانى حين يخاطب الشعب التركى بقوله من بحر البسيط[٣]:

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب ∴ حياك من يبعث الموتى ويحييها
ما بين آمالك اللائى ظفرت بها ∴ وبين مصر معان أنت تدريها

لقد كان ــ رحمه الله ــ حريصا على المطالبة باستقلال مصر، وحقها فى الشورى والدستور، وبدون هذه الأمور، لا استقرار فى مصر وإن وليها الخلفاء الراشدون أنفسهم، فيقول من بحر الوافر[٤]:

وإن فقدت فآمر القوم فوضى ∴ وإن وليته أيدى الراشدينا

يلاحظ أن فى إيثاره التعبير (بإن) إفادة لمعنى الشك فى تحقيق تلك المطالب، وإلا فالأمور ستكون عبثا حتى وإن حكم مصر هؤلاء الخلفاء الأجلاء، وفى التعبير بالفوضى، إشارة إلى ما سيصير إليه حال مصر وحال أبنائها من الاضطراب وعدم الاستقرار، وفى هذا الشك من الشاعر حيلة بارعة يؤكد بها مدى أهمية تحقيق الدستور،

---

(١) السفير الإنجليزى الطاغية، والحاكم المطلق حينئذ فى مصر ٠
(٢) الشوقيات : ١/ ١٧٣ مطبعة بيروت ٠
(٣) نفسه: ١/ ٢٩٠ بتصرف ــ مطبعة بيروت ٠
(٤) نفسه: ١/ ٣٤٢ ــ مطبعة مصر ٠

ومن ثم لجأ إلى بيان آثاره وفضائله من خلال خطابه الجلى الصريح للملك (أحمد فؤاد الأول) طالبا منه بذل أقصى الجهود للتعجيل به؛ فهو المصباح الذى يخرج سواد الشعب من الظلمات إلى النور، وإن شئت فقل: هو نبى الله عيسى فى المداواة لأصحاب العلل المستعصية، حيث يقول من بحر الوافر[1]:

فعجل يا ابن إسماعيل عجل ∴ وهات النور واهد الحائرينا
هو المصباح فات به وآخرج ∴ من الكهف السواد الغافلينا
ملايين تجر الجهل قيدا ∴ وتسحب بالقليل المطلقينا
فداو به البصائر فهو عيسى ∴ وفك براحتيه المقعدينا

وما أن يشرق عام ١٩٠٨م إلا ويكلل الله مجهودات (الملك فؤاد) بالنجاح، ويصدر (السلطان عبدالحميد) أمرا بحق الشعب المصرى فى الدستور، وهنا يطير الشاعر فرحا بهذا الإنجاز، ويشارك الشعب بهجته، مهديا لآلئ ثنائه لهذا الخليفة التركى، وذلك من خلال قصيدته التى استهلها بقوله من بحر البسيط[2]:

بشرى البرية قاصيها ودانيها ∴ حاط الخلافة بالدستور حاميها

ويبدأ الشاعر فى إهداء النصائح إلى الشعب الذى ينبغى أن يحسن اصطفاء النواب الذين سيمثلونه تحت قبة البرلمان، وما ينبغى أن يكونوا عليه من حميد الصفات، مبديا أساه وأسفه من أن يكونوا مجرد تماثيل،لا هم لهم سوى المصالح الشخصية[3].

ويتحقق الحلم، ويأتى يوم افتتاح البرلمان، وقد احتفى به الشعب من شيب وشبان، ويتهادى موكب الملك فؤاد فوق الورد والريحان؛ ليتنازل عن سلطته للشعب الذى سيحكم بالشورى ومنهج القرآن الكريم، هكذا يحدثنا بقوله من بحر الرجز[4]:

مصر الفتاة بلغت أشدها ∴ وأثبت الدم الزكى رشدها
وبعثت للبرلمان جندها ∴ وحشدت للمهرجان حشدها

---

(١) الشوقيات : ١/ ٣٤٣ ــ مطبعة مصر.
(٢) نفسه: ١/ ٢٨٦ ــ مطبعة بيروت.
(٣) نفسه: ١/ ٧٣ مطبعة مصر، ١/ ٩١ طبعة بيروت.
(٤) نفسه : ٢/ ١٩٨، ١٩٩ بتصرف ــ مطبعة مصر .

حـدت إليـه شـيبها ومردهـا ∴ وأبـرزت كعابهـا وخودهـا
ونثـرت فـوق الطريـق وردهـا ∴ واسـتقبلت فؤادهـا ووفـدها
موئلـها وكهفهـا وردهـا ∴ وابـن الـذين قومـوا مقـدها

نلاحظ أن الأبيات تنطق بالبهجـة والفرحـة بتلـك المناسـبة السعيدة، ويتجلى ذلك فى الإيثار لتلك الألفاظ (حشدت، حدت، نثـرت، وردها)، وفى الوصف لمصر بالرشد والشدة، إيحاء بقوة الشخصـية المصرية من جهة، والثقة بالشعب ومدى جدارته بالدستور والبرلمان من جهة أخرى، وفى الجمع بين الجند والشـيب والمـرد والكعـاب والخود، إيحاء باشتراك جميع فئات الشعب من فتيات وشيب وشبان فى الاحتفاء بهذا المهرجان، وفى نثر الورود على الطريـق تجسـيد لفرحة الشعب الغامرة باستقبال موكب الملك فـؤاد، وفـى إضـافة الضمير إلى مصر فى قوله: (فؤادها) إيحاء بمدى حب الشعب لهـذا الملك الذى حقق له تلك الأمنية الغالية، وفى التصريع لجميع الأبيات، إبراز لكل تلك المعانى الفخمة، وتقرير لها فى ذهن المتلقى من جهة، وإظهار لعبقرية الشاعر من جهة أخرى، حيث إنه "لا يلجأ إلى هـذا اللون إلا المطبوعون من الشعراء؛ لأن بنية الشعر هـى التسـجيع والتصريع أو التقفية، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالا عليه، كان أدخل له فى باب الشعر، وأخرج له عن مذهب النثر[1]".

كما يلاحظ إيثار الشاعر لبحر الرجز، بإيقاعه السـريع الـذى يتواءم مع سرعة تدفق الشعب بجميع فئاته؛ ابتهاجا بتلك المناسـبة التاريخية.

هذا عن مشاركة الشاعر الشعب فى أفراحه ، وقد لحظنا مدى إلحاحه على التأكيد لشعبيته، وانطلاقا من هذه الشعبية، كـان مـن الطبيعى أن يشارك نفس الشعب أحزانه وآلامه، ها هو ذا يؤكد ذلـك من خلال مراثيه التى يركز فيها على اسـتلهام النصـائح والحكـم

(١) نقد الشعر : ٨٠ بتصرف .

والعظات والعبر من الحدث، يريد بذلك "أن يتيح لقرائه مجموعات من الخبرات والتجارب الإنسانية، حتى يظفر بإعجابهم، وحتى يجدوا فى شعره ما ينفس عن آلامهم، بل ما يملؤهم ثقة وطموحا"(١) ، وخير مثال على ذلك، مراثيه فى ذكرى صديقه (مصطفى كامل) (٢) ذلك الشاب المناضل الذى كانت تربطه بالشاعر علاقة وطيدة، وحسب شاعرنا أنه كان "المواسى الوحيد له فى مرض الموت"(٣) ولما مات (رحمه الله) تأثر شوقى لرحيله تأثرا عميقا، مستشعرا نكبة الشعب فيه فرثاه فى ذكراه بقوله من بحر الكامل(٤):

لفوك فى علم البلاد منكسا ∴ جزع الهلال على فتى الفتيان
والخلق حولك خاشعون كعهدهم ∴ إذ ينصتون لخطبة وبيان
يتساءلون: بأي قلب ترتقى ∴ بعد المنابر أم بأى لسان ؟
لو أن أوطانا تصور هيكلا ∴ دفنوك بين جوانح الأوطان !!

وبما أن التجربة عميقة، والعاطفة متأججة، والحدث جلل، فقد آثر الشاعر بحر الكامل الذى يتناسب مع تلك القوة بامتداده وثقله وقوة جرسه وشدة رنينه، وقد أكد ذلك بإيثاره حرف (النون) قافية له، بما يتصف من الجهر والقوة والشدة، حتى حركة القافية آثر أن تكون الكسرة؛ لتتواءم مع الانكسار النفسى، والحزن العميق الذى ألم به تأثرا بهذا الحدث، كما حرص على سبق القافية بألف المد؛ كى تمنحه فسحة من الوقت لتفريغ شحنة الأسى الذى يعتمل فى صدره.

ومما يؤكد مدى حرص أمير الشعراء على شعبيته، أنه كان إذا ألم بالشعب حادث جلل، ولم يقل كلمته فى حينه، فإنه سرعان ما يقدم اعتذاره عن هذا التأخير، ذلك ما حدث عند رحيل (مصطفى كامل

(١) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٥٤ .
(٢) الشوقيات : ١/ ٢٢١ ، ٣/ ٩١، ١٥٧ مطبعة بيروت.
(٣) مجلة أبوللو: ٣٦٥ ــ مقال للأستاذ/ داود بركات ــ عدد ديسمبر ١٩٣٢م.
(٤) الشوقيات: ٣/ ١٥٨ ، ١٥٩ بتصرف ــ مطبعة بيروت .

باشا) لم يرثه إلا بعد "عام أو عدة أيام"[١]، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا التأخير لم يكن سببه "التأثر بسياسة القصر"[٢] وإنما السبب يكمن فى هول الصدمة التى شلت عبقريته، حتى إنه ليتعجب من نفسه مستنكرا ومعتذرا عما حدث، فيقول من بحر الكامل[٣]:

ماذا دهانى يوم بنت فعقنى ∴ فيك القريض وخاننى إمكانى

ثم يؤكد هذا المعنى ردا على من لاموه فى التأخير عن رثاء والده عام ١٨٩٧م بقوله من بحر الرمل[٤]:

سألونى لم لم أرث أبى ∴ ورثاء الأب دين أى دين
أيها اللوام ما أظلمكم ! ∴ أين لى العقل الذى يسعد أين ؟

لم يكتف الشاعر بذلك، بل شارك الشعب أحزانه الحارة فيما ألم به من أحداث كبرى هزت وجدانه، كحريق (ميت غمر) "الذى استمر لمدة أسبوع كامل، وهلك فيه خلق كثير"[٥] حيث يقول من بحر الكامل[٦]:

الله يحكم فى المدائن والقرى ∴ يا ميت غمر خذى القضاء كما جرى
ما زلت أسمع بالشقاء رواية ∴ حتى رأيت بك الشقاء مصورا
بالأمس قد سكنوا الديار فأصبحوا ∴ لا ينظرون ولا مساكنهم ترى
فإذا لقيت لقيت حيا بائسا ∴ وإذا رأيت رأيت ميتا منكرا
والأمهات بغير صبر : هذه ∴ تبكى الصغير، وتلك تبكى الأصغرا!
من كل مودعة الطلول دموعها ∴ من أجل طفل فى الطلول استأخرا
كانت تؤمل أن تطول حياته ∴ واليوم تسأل أن يعود فيقبرا

نلاحظ أن الشاعر حرص على تجسيد المأساة من خلال تلك الكلمات الموحية بالحزن والفجيعة (القضاء، بائسا، ميتا، تبكى،

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٤٥ ، وطنية شوقى: ١٠١، شعراء الوطنية فى مصر: ٦٣ .
(٢) فى الأدب الحديث: ٢/ ٩٨ بتصرف .
(٣) الشوقيات: ٣/ ١٦٠ مطبعة بيروت.
(٤) نفسه: ٣/ ١٥٤ مطبعة بيروت.
(٥) فى الأدب الحديث : ٢/ ١٩٩ هامش ــ بتصرف.
(٦) الشوقيات: ٤/ ٤٥، ٤٦ ــ بتصرف ــ مطبعة بيروت.

دموعها، فيقبرا) ثم يصور مدى ضخامة الحدث بأن الشقاء الذى كان يتخيله فى الروايات، رآه مجسدا فى (ميت غمر)، وينتقل إثر ذلك إلى تصوير حال الضحايا، والتغلغل فى أعماق الأمهات الثكالى؛ تجاوبا معهن، وكأنه قد طار بنا إلى مسرح الحدث الأليم، فجعلنا نشعر بما يشعر به ، وتلك ــ لعمرى ــ قمة العبقرية التى تؤكد مدى تعاطفه مع الشعب، وإحساسه بآلامه ٠

كما أجاد الشاعر فى الترجمة عن هذه التجربة القوية، والعاطفة العميقة، من خلال الإيثار لبحر الكامل بثقله وقوة جرسه وشدة رنينه، وكذلك الجهر والشدة فى حرف القافية (الراء) والقوة والاستعلاء فى تحركه بالفتح، ولشدة أثر المأساة فى نفسه، كأنه أحس أن كل هذا غير كاف فى الإفصاح عما يحس به، فأتبع القافية بألف الإطلاق؛ كى يظل دوى مشاعره المكلومة، وعاطفته المتأججة، متصلا ومستمرا، حتى يطرق سمع الأجيال فى كل زمان ومكان٠

إثر مرور أربع سنوات من تلك المأساة، يعم الأسى كل جوانب الحياة، وتحدث كارثة (دنشواى) "ويصمت الشاعر عاما كاملا"[١] وليس الصمت هنا "اتباعا لسياسة القصر"[٢] وإنما "لخيبة الأمل، وهول الصدمة التى ألمت به بسبب اشتراك بعض المصريين فى الحكم على الضحايا لصالح الإنجليز، فلما خفت الصدمة نطق"[٣] ، يرثى الضحايا، ويطلب العفو عن السجناء، ويأسى لحال الأرامل والأيتام، فيقول من بحر الكامل[٤]:

---

(١) الشوقيات ــ هامش ١/ ٢٤٤ مطبعة بيروت ــ بتصرف، وطنية شوقى: ١٦٨، شعراء الوطنية فى مصر: ٦١، فى الأدب الحديث: ٢/ ٩٦ ٠

(٢) فى الأدب الحديث : ٢/ ٩٧ ٠

(٣) وطنية شوقى : ١٦٩ بتصرف٠

(٤) الشوقيات: ١/ ٢٤٤، ٢٤٥ بتصرف ــ مطبعة بيروت ٠

يـا دنشـواى علـى ربـاك سـلام .:. ذهبـت بـأنس روعـك الأيـام
كيف الأرامـل فيـك بعـد رجالهـا .:. وبـأى حـال أصـبح الأيتـام
ياليت شعرى فـى الـبروج حمـائم .:. أم فـى الـبروج منيـة وحمـام ؟
نـيرون لـو أدركـت عهـد كرومـر .:. لعرفـت كيـف تنفـذ الأحكـام !
السـوط يعمـل والمشـانق أربـع .:. متوحـدات والجنـود قيـام
والمستشـار إلى الفظـائع نـاظر .:. تـدمى جلـود حولـه وعظـام
وعلـى وجـوه الثـاكلين كآبـة .:. وعلـى وجـوه الثـاكلات رغـام

نلاحظ أن الشاعر قد استعان على إبراز تجربته القاسية من خلال النداء (يا دنشواى)، والمقابلة بين الشطرين، والجناس بين الحمائم والحمام، للإيحاء بمدى الحسرة واللوعة، ثم أتى بالاستفهام فى البيت الثانى؛ للإشارة إلى بيان حال الأرامل والأيتام اللائى عضهن الدهر بأنيابه، وعبست فى وجوههن الأيام، وفى الإشارة إلى الطاغية الرومانى (نيرون) ، إيحاء بمدى القسوة التى ألمت بالشعب المصرى فى عهد المستبد البريطانى (كرومر)، ثم ينقلنا الشاعر بحذق ومهارة إلى مسرح الحدث ، ما بين أسواط تلهب الظهور، ومشانق تؤجج الحسرة فى الصدور، ودماء تسيل من الجلود والعظام، وقد علت الوجوه الكآبة والرغام، وفى تلخيص المأساة بكلمة (الفظائع)، وسيلان الدماء من العظام، تجسيد لمدى الضراوة، ونهاية القسوة فى تنفيذ الأحكام ٠

أليس هذا التجاوب والتعاطف مع آلام الشعب أقوى رد على من يرمونه بخلاف ذلك، إن هذا ــ لعمرى ــ لبرهان دامغ على التأكيد لشعبيته، وأن الشعب دائما يحتل البؤرة من مشاعره، لدرجة أنه إذا لم يشاركه الحدث فى حينه لأمر خارج عن إرادته، فإنه سرعان ما يتحين الفرصة ليفصح عما تكنه جوانحه؛ إحساسا بالآلام، وتعاطفا مع المشاعر ما دامت الأيام ٠

إثر هذا العرض نستطيع أن نقرر باطمئنان أن الشاعر إبان هذه المرحلة، لم يكن شاعر القصر كما قرر البعض، وإنما كان شاعر

الشعب، وقد تجلى ذلك من خلال ما سبق من مظـــاهر، بـــدءا مـــن الاهتمام بالجمهور وبالصحافة، وانتهاء بمشاركة الشعب فى أفراحـــه وأحزانه، وإذا كان الأمر كذلك فماذا عن مظاهر الشعبية فى المرحلة الثانية من حياته، ذلك ما سنتعرف عليه من خلال ما يلى ٠

المبحث الثانى
مظاهر الشعبية فى مرحلة النفى

لقد جادت عبقرية الشاعر إبان هذه المرحلة بالأندلسيات التى برزت من خلالها مظاهر شعبيته التى تتمثل فى الاهتمام بالحضارة العربية ، والإفصاح عن قوة العاطفة الوطنية والدينية كما يلى:

١ـ الاهتمام بالحضارة العربية:

كان الشاعر ــ فى منفاه ــ شديد الحرص على تأكيد شعبيته من خلال التذكير بأمجاد الآباء والأجداد ، حتى يبعث فى نفوس الشعب المصرى العزة والفخار، ويثير فيه الحمية والحماس بالتضحية بكل غال ونفيس من أجل الاعتزاز بهذا التراث، والحفاظ عليه ما دامت الحياة، ويتمثل ذلك فيما يلى:

أ ـ العناية بالتاريخ العريق:

"لم يؤثر عن شوقى أنه شاعر الطبيعة الأول، ولا شاعر الكون الأول، وإنما هو شاعر التاريخ الأول"(١)، فهو القائل: "الشعر ابن أبوين: الطبيعة والتاريخ"(٢)، كيف لا! وهو صاحب الاهتمام بالتاريخ المصرى القديم، ممثلا فى: قصائده عن سفح الأهرام، وأبى الهول، وتوت عنخ آمون، والمعاصر ممثلا فى: مشروع (ملنر)، ومشروع ٢٨ فبراير، والتاريخ الإسلامى، ممثلا فى: قصائده عن العرب، ومكة المكرمة، والرسالة، والأزهر، والخلافة(٣).

---

(١) مجلة فصول: ٢/ ١١٦ بتصرف ــ الأستاذة: نبيلة إبراهيم ــ مقال بعنوان: شعبية حافظ وشوقى.

(٢) فى الأدب الحديث: ٢/ ٢٩٤ .

(٣) الشوقيات: ١/ ٧٢، ٧٦، ٩٨، ١٠٥، ١١٣، ١٣٢، ١٥١، ١٥٨، ٢٦٦، ٢/ ٩٥ طبعة بيروت.

وحسبه فخرا أن التاريخ عنده يقترن بالعرض الذى يرادف الشرف فيقول من بحر الخفيف[1]:

وأنا المحتفى بتاريخ مصر ∴ من يصن مجد قومه صان عرضا

من أجل هذا ، كانت دعوته المخلصة إلى الاعتزاز بالتاريخ، وأن نتخذ منه معلما وهاديا، ثم يصرح بأن الأمة التى تنسى تاريخها، أمة لا وزن لها بين البشر، فيقول من بحر الرمل[2]:

غال بالتاريخ واجعل صحفه ∴ من كتاب الله فى الإجلال قابا
مثل القوم نسوا تاريخهم ∴ كلقيط عى فى الناس انتسابا

هذا الاهتمام البالغ بالتاريخ، دفع شاعرنا أن تجود عبقريته بالأندلسيات التى أبدعها إبان هذه المرحلة العصيبة، فكان قوى العزيمة، صلب الإرادة، لم يستسلم للهموم والأحزان التى ألمت به، بل أخذ يطوف ويجوس خلال الديار الأندلسية، يسرح الطرف فيما تبقى من أطلال الأجداد العرب الذين أعزهم الله فى هذه البقعة على مدى ثمانية قرون، أضاءوا خلالها أوربا، وأخرجوها من الظلمات إلى النور، بيد أن الأقدار شاءت أن يحال بينهم وبين هذا الملك ، وها هو ذا يصهر الألم قلبه، وتذوب نفسه حسرات، ويندب فى لحن جنائزى مؤثر ، يجسد فيه لحظة خروج العرب من هذا الفردوس المفقود على سفن كأنها اللحود، بعد أن دخلوا إليه فى سفن كأنها الأرائك فيقول من بحر الخفيف[3]:

خرج القوم فى كتائب صم ∴ عن حفاظ كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا وكانت ∴ تحت آبائهم هى العرش أمس

وبما أن الشاعر مقهور معنويا، ومهزوم نفسيا، فقد آثر أن تكون القافية حرف (السين) المعروف بهمسه وضعفه، وجعله مكسورا، ليتواءم ذلك مع الانكسار النفسى والمعنوى الذى ألم به،

(١) الشوقيات : ٢/ ٥٨ مطبعة بيروت ٠
(٢) نفسه: ٢/ ١٨، ١٩ بتصرف ــ مطبعة بيروت٠
(٣) نفسه: ٢/ ٥١ مطبعة بيروت ٠

لهذا نجده يطلق زفرة حارة على المجد العربى الذاهب، والتاريخ الذى سلب، من خلال هذه الوقفة الآسية على الرسوم العربية الإسلامية، يبكى فيها ملوك الأندلس الأبطال، ويمهد بذلك للحديث عن الوطن الذى لا يختلف عن الأندلس، فهما حرمان، بل جنتان، وفى النهاية يبكى سلاطين الأندلس بكاء حارا، يكاد يبعث الحياة فى أجسادهم، وهم موتى فى قبورهم، فيقول من بحر البسيط[1]:

آها لنا نازحى أيك بأندلس ∴ وإن حللنا رفيفا من روابينا
رسم وقفنا على رسم الوفاء له ∴ نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم ∴ كالخمر من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته ∴ تماثل الورد خير يا ونسرينا
نسقى ثراهم ثناء كلما نثرت ∴ دموعنا نظمت منها مراثينا
كادت عيون قوافينا تحركه ∴ وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا

يلاحظ استهلال الشاعر تلك المقطوعة بالتأوه؛ ليفصح بذلك عن مدى الأسى والحرقة التى أججت الحزن فى صدره، وتبدو براعته فى الإيثار لبحر البسيط بإيقاعه السريع الذى يتفق مع هذا الشجن المتتابع، وفى الإيثار للقافية بحرف (النون) المجهور القوى ما يتناسب مع عمق التجربة، وتأجج العاطفة، وقد أكد ذلك بحركة الفتح، حيث القوة والاستعلاء، ويلاحظ سبق القافية بياء المد؛ كى تمنحه فسحة من الوقت يفرغ فيها شحنة الحزن الذى يمور بين جوانحه، وكأنه أحس إثر هذا كله أنه غير كاف فى الإفصاح عن معاناته، فأتبع القافية بألف المد؛ كى يظل دوى الشجن، وصلصلة الحزن مستمرة، حتى تذكى جذوة الوطنية، وتبعث الحمية والحماس فى نفوس الشعب المصرى والعربى، فيهب الجميع إلى وحدة الصف؛ أملا فى استرداد هذا المجد الذى ولى.

(١) الشوقيات: ٢/ ١٠٤، ١٠٥ بتصرف ــ مطبعة بيروت .

ب ـ الإشادة بالآثار العربية:

بما أن الأندلس ومصر جنتان، كلتاهما تنوب عن الأخرى فى احتواء الشاعر، فقد أشاد بالآثار فى كلتيهما؛ تعبيرا عن مدى فخره واعتزازه، ولا ريب أن فى ذلك تأكيدا لشعبيته؛ كى يلفت الأنظار إلى أهمية تلك الآثار، وما ينبغى على ذويها من الاهتمام بها، والحفاظ عليها؛ ففيها رائحة الآباء، وكنز الأجداد.

ها هو ذا يتجول فى رحاب المدن الأندلسية، حيث الليل يلفه بظلامه، والبرق يدوى من حوله، والريح تزمجر فى جنبات الكون، وسط هذا المناخ الكئيب، يتساءل فى حسرة بالغة عن حال الخلفاء، والقصور، والديار، والمنارات، والربى، فيقول من بحر الخفيف[1]:

أين مروان فى المشارق عرش ∴ أموى وفى المغارب كرسى
وعظ البحترى إيوان كسرى ∴ وشفتنى القصور من عبد شمس
رب ليل سريت والبرق طرفى ∴ وبساط طويت والريح عنسى
فى ديار من الخلائف درس ∴ ومنار من الطوائف طمس
وربى كالجنان فى كنف الزيـ ∴ ـتون خضر وفى ذرا الكرم طلس

نلحظ مدى براعة الشاعر فى الإيثار لهذا البحر الذى يتميز بسرعة إيقاعاته التى تتناسب مع الجو النفسى له، وتلاحق حسراته، وها هو ذا يؤكد ذلك بإيثار حرف (السين) فى القافية بما فيه من همس وضعف، ثم يجعله مكسورا للإيحاء بالضعف المعنوى الذى يحاصره، والانكسار النفسى الذى ألم به.

وسط هذا الإطار الأسود لصورة الآثار العربية فى الأندلس، تستوقف الشاعر الأطلال الدارسة من مدينة (قرطبة)، ويجتر آلام الذكريات، فيقول من بحر الخفيف[2]:

لم يرعنى سوى ثرى قرطبى ∴ لمست فيه عبرة الدهر خمسى
قرية لا تعد فى الأرض كانت ∴ تمسك الأرض أن تميد وترسى
فتجلت لى القصور ومن فيـ ∴ ـها فى العز فى منازل قعس

(١) الشوقيات : ٢/ ٤٨، ٤٩ بتصرف ــ مطبعة بيروت .
(٢) نفسه: ٢/ ٤٩ بتصرف ــ مطبعة بيروت .

يلاحظ أن فى هذه الأبيات إيحاء بسمو مكانة (قرطبة) بين سائر المدن فى العزة والكبرياء وكأنها الشم الرواسى، وفى التقييد للمنازل بكونها قعسا، إشارة إلى تميز حكامها العرب بالعز الثابت الذى لا يزول.

ومن (قرطبة) الغراء، يعرج الشاعر على (غرناطة) الحمراء، يصف قصرها وصفا مجسما، وكأننا نشخصه بأبصارنا، ونلمسه بأيدينا، فيقول من بحر الخفيف[1]:

حصن غرناطة ودار بنى الأحـ ∴ مر من غافل ويقظان ندس
جلل الثلج دونها رأس شيرى ∴ فبدا منه فى عصائب برس
مشت الحادثات فى غرف الحمـ ∴ راء مشى النعى فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت ∴ سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها ∴ واستراحت من احتراس وعس
لا ترى غير وافدين على التا ∴ ريخ ساعين فى خشوع ونكس

يلاحظ أن فى التعبير بالفعل (هتكت) ما فيه من مدى البشاعة والقسوة التى أحدثتها النوائب فى هذا الصرح العظيم، ثم نلاحظ أن فى البيتين الأخيرين تأكيدا لمدى الحسرة التى ألمت بالشاعر، وتجسيدا حيا للمأساة، فالعرصات التى كانت تعج بصهيل الخيول، ملئت ساحاتها بالصمت الذى يذهل العقول، ولم نر غير الذل والخشوع من الوافدين على الطلول.

وفى النهاية قبل أن يغادر الشاعر تلك الآثار العظيمة، إثر هذه الفترة العصيبة من حياته، نلحظه يؤكد مدى شعبيته حين يلقى بالتبعة واللوم على العرب، وينعى عليهم إهمالهم لهذا التراث على مر الزمان، وبيعهم عز الأجداد بأبخس الأثمان، فيقول من بحر الخفيف[2]:

آخر العهد بالجزيرة كانت ∴ بعد عرك من الزمان وضرس

(١) الشوقيات: ٢/ ٥٠، ٥١ بتصرف ــ مطبعة بيروت .
(٢) نفسه: ٢/ ٥١ بتصرف ــ مطبعة بيروت .

فتراها تقول راية جيش ∴ باد بالأمس بين أسر وحس
ومفاتيحها مقاليد ملك ∴ باعها الوارث المضيع ببخس

وبعد أن يفيض الشاعر بأحزانه، ويبوح بآلامه نحو المجد العربى فى الفردوس المفقود، يطير بنا إلى الوطن العزيز مصر، فيشيد بآثاره التى تجسد عظمة الأجداد، هؤلاء الفراعنة الذين أنطقوا الحجارة على حد قوله من بحر الوافر(١):

تعالى الله كان السحر فيهم ∴ أليسوا للحجارة منطقينا

يشير بذلك إلى الأهرامات الصامدة بشموخها وكبريائها الذى يتحدى الطبيعة على مدى الدهور والأعوام، ولله در من قال: "كل شئ يخشى عليه الدهر إلا الأهرام فإن الدهر يخشى عليه منها"(٢) ، ومن ثم نجد الشاعر يترجم هذه العظمة بقوله من بحر البسيط(٣):

كأن أهرام مصر حائط نهضت ∴ به يد الدهر لا بنيان فانينا
إيوانه الفخم من عليا مقاصره ∴ يفنى الملوك ولا يبقى الأواوينا
كأنها ورما لا حولها التطمت ∴ سفينة غرقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحى ذهبا ∴ كنوز فرعون غطين الموازينا

هكذا يعرب الشاعر عن مدى اعتزازه وافتخاره بهذا الأثر العظيم، الذى تخيله كنوزا ذهبية عمد فرعون إلى وزنها.

وإذا كانت الأهرام هى الموزونة فى هذا المقام، ففى مقام آخر، يتخيلها ميزانا، يزن به فرعون أعمال الجبابرة الذين دانوا له بالطاعة والولاء، وليس هذا فحسب، بل إنها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة التى أحضرها له الجباة من شتى أنحاء المعمورة فى أرض الله، فيقول من بحر الخفيف(٤):

وكأن الأهرام ميزان فرعو ∴ ن بيوم على الجبابر نحس
أو قناطيره تآنق فيها ∴ ألف جاب وألف صاحب مكس

(١) الشوقيات : ١/ ٢٦٧ طبعة بيروت .
(٢) نفسه ــ هامش: ١/ ٢٦٨ مطبعة بيروت .
(٣) نفسه : ٢/ ١٠٨ مطبعة بيروت .
(٤) نفسه : ٢/ ٤٧ مطبعة بيروت.

وكما أبدع الشاعر فى وصف الأهرامات، أبدع أيضا فى وصف أبىالهول، حيث يقول من بحر الخفيف[1]:

ورهين الرمال أفطس إلا ∴ أنه صنع جنة غير فطس
تتجلى حقيقة الناس فيه ∴ سبع الخلق فى أسارير إنسى
ركبت صيد المقادير عينيه ∴ لنقد ومخلبيه لفرس
فأصابت به الممالك كسرى ∴ وهرقلا والعبقرى الفرنسى

يلاحظ إن فى البيت الأول إشارة إلى مدى إبداع المصريين القدماء، وبراعتهم فى فن النحت لهذا الأثر، فعلى الرغم من أنفه الأفطس المنتشر فى وجهه، إلا أن الناحتين له غير ذلك، وقد أكد هذا المعنى بأنه من صنع جنة، إشارة إلى أنهم بلغوا حد الإعجاز فى هذا الفن، وكأنهم ليسوا من جنس البشر، وفى البيتين الثانى والثالث إيحاء بمدى الهيبة والعظمة للإنسان المصرى على الإطلاق، وهذا الأثر خير شاهد، فالجسد جسد أسد هصور، والوجه وجه مصرى جسور، وكان من أثر تلك الهيبة، ما تخيله الشاعر إثر ذلك ، أن هذا الأسد الرابض فوق الرمال، الصامت على مدى الدهور والأعوام، هذا الصمت إزاء النوائب والأحداث، ليس من قبيل العجز أو الاستسلام،وإنما هو ازدراء واحتقاء لمن شق عليه عصا الطاعة فى يوم من الأيام٠

بهذا استطاع الشاعر أن يؤكد شعبيته من خلال الاهتمام بتلك الحضارة العربية المتمثلة فى العناية بالتاريخ، والإشادة بالآثار، كما حرص أيضا على تأكيد تلك الشعبية من خلال العاطفة الوطنية، ذلك ما سنعرفه فيما يلى:

٢ـ قوة العاطفة الوطنية :

بعد أن كان القصر سببا فى نعيم شوقى، إذا به يغدو سببا فى شقائه، حيث النفى بعيدا عن الوطن، هذا النفى الذى أحزن الشاعر، وأثار فيه لواعج الشوق والحنين إلى شعبه الذى لم ينسه إبان هذه

(١) الشوقيات : ٢/ ٤٧، ٤٨ بتصرف ــ مطبعة بيروت ٠

المحنة التى أثمرت أندلسياته، فكانت خير مترجم لوطنيته وشعبيته، وذلك من خلال ما يلى:

أ ـ الحنين إلى الوطن :

لقد كان حنين الشاعر إلى مصر الوطن وهو فى منفاه "حنينا عميقا؛ لأنه شهد فى هذا الوطن دنيا من الحب والمجد ، لم يظفر بها إلا قلة من البشر"(١)، لذا نجده يخاطب الشعب والمواطنين فى مصر بأصدق المشاعر، وأعمق الأحاسيس، فيقول من بحر البسيط(٢):

إلى الذين وجدنا ود غيرهم ∴ دنيا وودهمو الصافى هو الدينا
يا من نغار عليهم من ضمائرنا ∴ ومن مصون هواهم فى تناجينا
ناب الحنين إليكم فى خواطرنا ∴ عن الدلال عليكم فى أمانينا

هذا التجاوب الجميل فى صدق المشاعر، جعل الشاعر يلتمس العذر لمصر فى نفيه، مبررا ذلك بأنها أجبرت على ذلك، واضطرت إليه؛ رغبة فى الحفاظ عليه، فيقول من بحر البسيط(٣):

لكن مصر وإن أغضت على مقة ∴ عين من الخلد بالكافور تسقينا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا ∴ من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا ∴ وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا

كما تتجلى مظاهر الحنين أيضا فى الاستعراض لذكريات الطفولة ، والهيام بالطبيعة المصرية الساحرة.

أما الحديث عن ذكريات الطفولة، فيقول من بحر البسيط(٤):

على جوانبها رفت تمائمنا ∴ وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا ∴ وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا ∴ ومغرب لجدود من أوالينا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا ∴ من بر مصر وريحان يغادينا

نلاحظ إشارة الشاعر إلى عادتى تعليق التمائم والرقى، وهما من صميم عادات الشعب المصرى، وفى هذا إيحاء بشعبيته التى

(١) الموازنة بين الشعراء: ٣٥٧ بتصرف.
(٢) الشوقيات: ٢/ ١٠٦ مطبعة بيروت .
(٣) نفسه: ٢/ ١٠٥ بتصرف ــ مطبعة بيروت.
(٤) نفسه: ٢/ ١٠٥ مطبعة بيروت.

ذكرته بذلك من جهة، وإشارة إلى مدى بر وعطف مصر عليه ، وكأنها الأم الرءوم التى تعتقد أن فى الرقية والتمائم حفظا لأولادها من أى مكروه، ثم يؤكد هذا البر والحنو فى البيت الأخير الذى يشير إلى شمول هذا العطف له فى الغربة فى الغداة والرواح وفى جميع الأوقات ٠

وأما عن الهيام بالطبيعة الساحرة، فقد كان (رحمه الله) "ذا شاعرية فذة ، وحساسية مرهفة، وكان مولعا بالجمال يهتز له أينما وجده، وبما أن الطبيعة المصرية ليست مملة كما يزعم بعض المدافعين عن أوربا، فإن شوقيا لم يقف منها عند حد التصوير الرائع الذى يفتن اللب والنظر والسمع، وإنما اندمج فيها وشخصها وبعثها حية، فأربى بذلك على من تقدمه، وأعجز من أتى بعده"(١) ٠

ها هو ذا يتألق فى وصفه لنهر النيل بقوله من بحر البسيط(٢):

والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت ∴ لو كان فيها وفاء للمصافينا
ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا ∴ ماء لمسنا به الإكسير أوطينا
له مبالغ ما فى الخلق من كرم ∴ عهد الكرام وميثاق الوفيينا

نلاحظ مدى حرص الشاعر على إبراز المعانى وتقريرها فى الأذهان ، من خلال أساليب التشخيص، والطباق بين (الذهب والطين)، والمقابلة بين (الوفاء والغدر)، والاحتراس بأداة الشرط (لو)، التى توحى بمدى الحسرة، ونهاية الألم من هذه الدنيا التى تنكرت له، وبدلت سعادته إلى تعاسة حاصرته فى غربته، وزادت من همه وكربته ٠

فى النهاية نؤكد أن من حق الشاعر أن يفصح عن مدى حنينه إلى مصر الوطن، من خلال التألق فى الوصف لهذا النهر الخالد، وحسبه فى ذلك أن مصر بنيلها "كانت ولا تزال بابا من الفتنة لكل من

(١) فى الأدب الحديث: ٢/ ١٦٢، ١٦٨ بتصرف ٠
(٢) الشوقيات: ٢/ ١٠٧ بتصرف، مطبعة بيروت ٠

يمسى، وبفضلها يقول فرعون: أليس لى ملك مصر وهـذه الأنهـار تجرى من تحتى"[١].

كما يتألق فى وصف سحر نسمة الجنوب، والجزيرة الخضراء التى يشقها النيل، وجمال الشمس فى وقت الأصيل[٢]، كل هذا يعكس مدى الحنين الجارف إلى الوطن الذى أبعده رغما عنـه، ولـم يجـد شاعرنا ما يواسيه فى منفاه، سوى الإبحار فى عالم الخيال، ففى ذلك سعادته، لعله يخفف من كربته، ويهون مما ألم به فى غربته.

ب- الاعتزاز بالمصرية:

كان الشاعر شديد الاعتزاز بمصريته؛ تأكيدا لشعبيته، ولا غرو فى ذلك! فهو من أبوين مصريين، وفى مصـر درج علـى ترابهـا، وتنسم أريج عطرها، ها هـو ذا يزهـو ويفتخـر بآبائـه وأجـداده الأقدمين، معلنا فضلهم على الدنيا بأسرها، فيقول من بحر البسيط[٣]:

لم يجر للدهر إعذار ولا عرس ∴ إلا بآيامنـا أو فـى ليالينـا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ∴ ولم يهـن بيـد التشـتيت غالينـا
ولا يحـول لنـا صـبغ ولا خلـق ∴ إذا تلـون كالحربـاء شـانينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبل ∴ قبـل القياصـر دناهـا فراعينـا
ولم يضع حجرا بان على حجر ∴ فـى الأرض إلا علـى آثـار بانينـا

يلاحظ مدى اعتزازه بمصريته من خلال هذا الفخر بالمصريين القدماء، ففى البيت الأول إيحاء بقصر السعادة والسرور على أيامهم فقط دون غيرهم، حيث كانت مصر ــ فى هذا التوقيت ــ يشار إليها بالبنان، بفضل ريادتها وقيادتها هذا العالم، وفـى الثـانى "يستشـعر الشاعر كبرياء قومه فى أقوى صوره"[٤].

---

(١) الموازنة بين الشعراء : ١٥٢ بتصرف، وفى النص إشارة إلـى الآية: ٥١ من سورة الزخرف.
(٢) الشوقيات: ٢/ ٤٦، ٤٧، ١٠٧، ١٠٨ طبعة بيروت.
(٣) نفسه: ٢/ ١٠٧، ١٠٨ بتصرف ــ طبعة بيروت.
(٤) الأدب العربى المعاصر فى مصر : ١٨٨ .

جـ- التغنى بالعروبة:

رغم معاناة الشاعر آلام الغربة فى منفاه، إلا أنه كان يرقب حركة الجهاد الوطنى فى مصر وفى خارج مصر، ولا ييأس لحظة من النصر، ها هو ذا يشيد بثورة ١٩١٩م فيقول من بحر الكامل[١]:

فى مهرجان الحق أو يوم الدم ∴ مهج من الشهداء لم تتكلم
يوم البطولة لو شهدت نهاره ∴ لنظمت للأجيال ما لم ينظم
غبنت حقيقته وفات جمالها ∴ باع الخيال العبقرى الملهم
لولا عوادى النفى أو عقباته ∴ والنفى حال من عذاب جهنم
لجمعت ألوان الحوادث صورة ∴ مثلت فيها صورة المستسلم
وحكيت فيها النيل كاظم غيظه ∴ وحكيته متغيظا لم يكظم
يوم النضال كستك لون جمالها ∴ حرية صبغت أديمك بالدم

نلاحظ أن فى التعبير بمهرجان الحق، إيحاء بمدى فرحة الشعب وبهجته بتلك الثورة التى يطالب فيها بحقه فى حكم الشورى، وإشراكه فى اتخاذ القرارات المصيرية، وفى إسناد اليوم والحرية إلى الدماء، إشارة إلى أن الشهادة فى سبيل الحق، وإراقة الدماء الزكية، هما أشرف وسيلة للحصول على هذا الحق.

وإذا كان الشاعر قد نظم هذه المقطوعة من الكامل بما فيه من قوة الجرس، وشدة الرنين، وأتى بقافية الميم بما فيها من جهر وقوة، وآثر كسرها للإشارة إلى مدى قوة انكساره النفسى، وقهره المعنوى الذى ألم به بسبب الغربة التى حالت بينه وبين المشاركة فى تلك الثورة المباركة، وفى هذا ما فيه من التأكيد لشعبيته، واستمرار الصلة بهذا الشعب كما كان قبل النفى، فهو وإن غاب عنه بجسده، فالقلب معه ومع ثورته.

إذا كان الأمر كذلك، فها هو ذا يمعن فى التأكيد لتلك الشعبية ، ويؤجج الحماس فى نفوس الشعب المصرى، حين يشير إلى أن

(١) الشوقيات: ٢/ ١٨٧، ١٨٨ بتصرف ــ مطبعة بيروت .

سلاح الحق وحده، هو أقوى وأمضى الأسلحة، وفى هذا ما فيه من دفع الثقة، ورفع الروح المعنوية حيث يقول من بحر المتقارب[1]:

وأهيب ما كان بأس الشعوب ∴ إذا سلاح الحق أعزالها

كل هذا يؤكد صدق وطنيته، وتأكيد شعبيته، وحسبه أنه لم يكن "شاعر الشعب المصرى فحسب، بل كان شاعر الشعوب العربية"[2]، فاستحق بصدق أن يكون شاعر العروبة، يناهض الاحتلال فى مصر وفى غير مصر، ويأسى ويحزن لأى اعتداء يقع على مصر، أو على إحدى شقيقاتها، إذا كان الأمر كذلك ، فماذا عن شعبيته من خلال العاطفة الدينية، ذلك ما سنتعرف عليه من خلال ما يلى:

٣ ـ قوة العاطفة الدينية:

كان الشاعر على وعى تام بتدين الشعب المصرى، ومن ثم أكد شعبيته من خلال هذا الجانب فى أندلسياته؛ إرضاء لعواطف قرائه الدينية، وقد تمثل ذلك فيما يلى:

يتحدث عن مصر التى تحبه، بيد أنها أجبرت على نفيه رغما عنها، حيث يقول من بحر البسيط[3]:

لكن مصر وإن أغضت على مقة ∴ عين من الخلد بالكافور تسقينا

نلاحظ أن فى الشطر الثانى إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾[4] ، ويلتمس لها العذر لما هو أبعد من ذلك، حين يصور مدى برها وحنوها عليه، وأنها لم تفعل ذلك إلا بغية الحفاظ عليه، فكان حالها كحال أم موسى عليه السلام،

(١) الشوقيات: ٢/ ١٨٥، ١٨٦ ــ مطبعة بيروت.
(٢) حافظ وشوقى: ٢٢، شوقى شاعر العصر الحديث: ١٥٣، ١٥٤ بتصرف .
(٣) الشوقيات: ٢/ ١٠٥ مطبعة بيروت.
(٤) الإنسان: ٥ .

حين ألقته فى اليم باسم الله، لا تبغى بذلك سوى النجاة، من بطش فرعون وأذاه، حيث يقول إثر ذلك من القصيدة نفسها :

كأم موسى على اسم الله تكفلنا ∴ وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا

كما يتحدث عن ديار الفردوس المفقود التى صارت أثرا بعد عين، حيث يقول من بحر الخفيف[١]:

يا ديارا نزلت كالخلد ظلا ∴ وجنى دانيا وسلسال أنس

ففى التعبير بالجنى الدانى إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[٢]، ويصف جمال الشمس فى الطبيعة المصرية بقوله من بحر البسيط[٣]:

والشمس تختال فى العقيان تحسبها ∴ بلقيس ترفل فى وشي اليمانينا
إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا ∴ خمائل السندس الموشية الغينا

نلاحظ الإشارة إلى قصة ملكة سبأ (بلقيس) التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم[٤].

وفى مقام آخر يصف مدى طهر ونقاء النسمة الرقيقة التى تهب عليه من مصر وهو فى منفاه، فيشبهها ــ والحال هذه ــ بقميص يوسف (عليه السلام)، حيث يقول من بحر البسيط[٥]:

زكية الذيل لو خلنا غلالتها ∴ قميص يوسف لم نحسب مغالينا

يشير بذلك إلى قصة يوسف (عليه السلام) [٦]، وعن تفريط العرب فى الفردوس المفقود، يقول من بحر الخفيف[٧]:

ومفاتيحها مقاليد ملك ∴ باعها الوارث المضيع ببخس

ففى الشطر الثانى إشارة إلى القصة نفسها أيضا، وبخاصة حين باعه إخوته لإحدى القوافل السيارة بأبخس الأثمان، مستلهما فى

---

(١) الشوقيات: ٢/ ٥٢ مطبعة بيروت.
(٢) الرحمن ــ من الآية : ٥٤ .
(٣) الشوقيات: ٢/ ١٠٧ مطبعة بيروت.
(٤) النمل : ٢٢ ــ ٤٤ .
(٥) الشوقيات : ٢/ ١٠٦ مطبعة بيروت .
(٦) السورة رقم : ١٢ من القرآن الكريم .
(٧) الشوقيات: ٢/ ٥١ مطبعة بيروت.

ذلك قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾[1] .

كما يصف النيل وصفا قدسيا، حيث يقول من بحر البسيط[2]:

أعداه من يمنه التابوت وارتسمت .·. على جوانبه الأنوار من سينا

نلاحظ الإشارة إلى واقعتين تاريخيتين: الأولى، وضع أم موسى (عليه السلام) رضيعها موسى فى التابوت، وإلقاؤه فى اليم، مستلهما بذلك قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾[3]، والثانية، مناجاة موسى (عليه السلام) لربه من فوق جبل الطور بسيناء، مستلهما بذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾[4] كما نلحظه يصف حالته الصحية إبان فترة المنفى، مخاطبا الطائر الجريح بقوله من بحر البسيط[5]:

أساة جسمك شتى حين تطلبهم .·. فمن لروحك بالنطس المداوينا

يشير بذلك إلى الحديث الشريف، عن أسامة بن شريك أن رسول الله (ﷺ) قال : "تداووا يا عباد الله، فإن الله لم يضع داء، إلا وضع له شفاء، إلا داء واحدا الهرم"[6].

ويصف أيضا عادات الشعب المصرى بقوله من بحر البسيط[7]:

على جوانبها رفت تمائمنا .·. وحول حافاتها قامت رواقينا

---

(١) يوسف ــ من الآية: ٢٠ .
(٢) الشوقيات: ٢/ ١٠٧ مطبعة بيروت.
(٣) القصص ــ من الآية: ٧ .
(٤) الأعراف ــ من الآية: ١٤٣ .
(٥) الشوقيات: ٢/ ١٠٤ مطبعة بيروت .
(٦) فتح البارى: ١٠/ ١٤١ ــ حديث رقم: ٥٦٧٨ .
(٧) الشوقيات: ٢/ ١٠٥ مطبعة بيروت.

ففى التعبير بالتمائم والرواقى، إشارة إلى الحديث الشريف، عن ابن مسعود أن رسول الله (ﷺ) قال: "إن الرقى والتمائم والتولة شرك"(١).

كما يرسم صورة قدسية للحكام العرب الذين دانت لهم الأندلس طوال ثمانية قرون فيقول من بحر البسيط(٢):

رسم وقفنا على رسم الوفاء له ∴ نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم ∴ ولا مفارقهم إلا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة ∴ للناس كانت لهم أخلاقهم دينا

نلاحظ أن فى البيت الأول إيحاء بمنتهى الوفاء لهؤلاء الحكام الذين بمجرد الوقوف على أطلالهم، اغرورقت العين بالدموع التى لم تذرف، وما حبسها سوى الإجلال لهؤلاء ، ثم يكثف من خياله حين يصفهم إثر ذلك بغاية العزة والكرامة، فهم لا يعرفون الخضوع، ولا ذرف الدموع، إلا حالة السجود لله وحده فى عزة وخشوع، ثم يشير أخيرا إلى مدى أهمية الأخلاق فى سيادة الأمم، تلك السيادة التى لو لم ينالوها بالإسلام، لكانت الأخلاق هى الإسلام، وفى هذا ما فيه من الإيحاء بسمو الأخلاق، ومدى أثرها فى تحويل القلوب، وتغيير مصائر الشعوب.

وهكذا تتجلى شعبية الشاعر فى مرحلة النفى، من خلال اهتمامه بالحضارة العربية، وتميزه بقوة العاطفة الوطنية والدينية، وبما أنه بكى واستبكى الفردوس المفقود، فما كان الهدف من ذلك،

(١) فتح البارى: ١٠/ ٢٠٦ ــ حديث رقم: ٥٧٣٥ ، والمراد الرقى غير الشرعية، أما الشرعية فلا بأس بها، ومن الأدعية الواردة بشأنها "اللهم رب الناس، أذهب البأس، اشف وأنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما" ــ فقه السنة: ١/ ٣١٤ .
(٢) الشوقيات: ٢/ ١٠٤ مطبعة بيروت.

سوى تلقين الدرس القاسى للمسلمين، أن يستفيدوا من عبر الماضى وعظاته، حيث يقول من بحر الخفيف[1]:

حسبهم هذه الطلول عظات ∴ من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفات إلى الما ∴ ضى فقد غاب عنك وجه التأسى

كل هذا يؤكد أنه مع الشعب فى كل أحواله؛ قبل النفى، وحال النفى، وإذا كان الأمر كذلك، فماذا عن مرحلة العودة من النفى؟ هل ما زال مقياس الشعبية يزداد فى اطراد، أم أنه يتراجع القهقهرى إلى الوراء؟ ذلك ما سنتعرف عليه فيما يلى:

(١) الشوقيات: ٢/ ٥٢ مطبعة بيروت.

المبحث الثالث
مظاهر الحياة الشعبية فى مرحلة العودة

لقد بدت شعبيته أكثر جلاء إبان هذه المرحلة، وذلك من خلال المظاهر الآتية:

أ ـ قوة العاطفة الدينية:

لكى يقرر الشاعر شعبيته، اتكأ على هذا الجانب، وسيطرت عليه النزعة الروحية؛ إرضاء لعواطف قرائه الإيمانية، ها هو ذا يعبر عن مدى فرحته بالعودة من المنفى، فيشبه هداية نور الإسكندرية للباخرة التى أقلته بهداية المدينة المنورة للحجيج، ثم يتخيل البحر وقد غشته أنوار المنار، جبل الطور حين غطته الأنوار الربانية أمام سيدنا موسى (عليه السلام)، وأخيرا عند الرسو على ثرى مصر نجده يخلع عليه صفة الطهر والنقاء.

وحين يفرح الشعب بنجاة بعض الشباب من مؤامرة دنيئة، دبرها لهم الإنجليز، نجده يشاركهم الفرحة، ويشيد بهؤلاء الشبان عند خروجهم من السجون بالولدان الركع السجود، وحين يعقد مؤتمر تتحد فيه الأحزاب على إنقاذ الدستور، نجده يزداد ابتهاجا ويشبه مقر المؤتمر بالغار الذى علاه نسيج العنكبوت، وأخيرا يقام حفل لتكريم الجراح العبقرى دكتور (على إبراهيم)، فنجده يشارك فى الفرحة، ويشبه يده حال إجراء العمليات الجراحية، بيد الخليل (عليه السلام) حين أعاد الحياة للطير الذبيح بقدرة الله سبحانه[1].

وكما شارك الشاعر الشعب فرحته بهذه الروح الإيمانية، شاركه أيضا أحزانه بنفس الروح، فنلحظه يحزن أشد الحزن حين

(١) الشوقيات: ١/ ٦٦، ١١٠، ٢/ ١٥٥، ١٨٩ طبعة بيروت حيث الإشارة إلى الآيات: ١٧ من الواقعة، ٢٩ من الفتح، ٤١ من العنكبوت، ٤٠ من التوبة، ٦٠ من البقرة .

ألغى (مصطفى باشا كمال) الخلافة الإسلامية، لقد كانت الصدمة قاسية، لدرجة أنها هزت كيان العالم الإسلامى بعامة، والشاعر بخاصة، ها هو ذا يصرخ من أعماقه، حين يرى عقد الدول الإسلامية ينفرط، وإذا به يتخيلها نائحة تولول وتنوح على ما آل عليه حال الخلافة، وذلك من خلال تلك البكائية التى استهلها بقوله من بحر الكامل[1]:

عادت أغانى العرس رجع نواح ∴ ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه ∴ ودفنت عند تبلج الإصباح
شيعت من هلع بعبرة ضاحك ∴ فى كل ناحية وسكرة صاح
ضجت عليك مآذن ومنابر ∴ وبكت عليك ممالك ونواح
وأتت لك الجمع الجلائل مأتما ∴ فقعدن فيه مقاعد الأنواح

نلاحظ أن الشاعر يعمد إلى إبراز معانيه وتأكيدها فى أذن المتلقى، من خلال الجمع بين النقيضين فى حذق وبراعة، فالخلافة التى كانت عروسا حسناء، وهتاف الشعب بها تغاريد وغناء، وفجأة يضيع الأمل، ويخيب الرجاء، وإذا بالأغانى تتحول إلى نواح وبكاء، وتنعى العروس، ومعالم الفرح ما زالت لها أصداء.

وهكذا نلحظ مدى براعته فى الإفصاح عن عاطفته الدينية؛ إرضاء لأذواق قرائه الدينية، وفى هذا ما فيه من التأكيد لشعبيته، وإذا كان الأمر كذلك فماذا عن عاطفته الوطنية؟ ذلك ما سنتعرف عليه فيما يلى:

ب ـ قوة العاطفة الوطنية:

تميزت العاطفة الوطنية للشاعر إبان هذه المرحلة بأنها أصرح وأشجع مما قبلها، يرجع ذلك إلى مدى تمتعه بالحرية والانطلاق والتأكيد لشعبيته بشكل يفوق مرحلتى القصر والنفى، وإن كانت هاتان المرحلتان لم تعقه عن المشاركة للشعب بكل مشاعره فى

(١) الشوقيات: ١/ ١٠٥، ١٠٦ بتصرف ــ طبعة بيروت.

التحقيق لآماله، والتخفيف عن آلامه، إلا أنه فى هذه المرحلة كان أكثر جرأة وانطلاقا عما قبل، وقد تمثلت قوة العاطفة الوطنية لديه خلال هذه الفترة فى العديد من المظاهر التى تتمثل فى: التقديس للوطن، والإشادة بالتاريخ، والدعوة إلى الوحدة، والدعوة إلى التقدم كما يلى:

أما عن التقديس للوطن فإن لمصر الوطن فى نفس شوقى منزلة سامية، ومكانة عظيمة لا تنال، وهل تنال السماء أو الشم الرواسى من الجبال، هكذا يهتف الشاعر بعظمة مصر فى كل مناسبة، حيث يقول من بحر الخفيف[1]:

وبنينا فلم نخل لبان .·. وعلونا فلم يجزنا علاء

وحسبه شرفا وفخرا أن يدبج من أجل الوطن هذه الأبيات التى سارت مسرى الحكم والأمثال، على تعاقب السنين والأجيال، فيعبر عن مدى فرحته الغامرة فى اللحظة التى وطئت أقدامه ثرى مصرى عائدا من منفاه، حيث يقول من بحر الوافر[2]:

ويا وطنى لقيتك بعد يأس .·. كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أنى دعيت لكنت دينى .·. عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهى .·. إذا فهت الشهادة والمتابا

كل هذا يؤكد مدى شعبيته، وشدة حرصه على إرضاء هذا الشعب الذى يناضل ضد الاحتلال، ومن ثم نلحظه فى مسرحياته وبخاصة (كليوباترا) يزداد حرصه على أن يقدمها لهذا الشعب الأبى وطنية مخلصة لهذا الوطن الذى تحيا له ولعرشه، فيجرى على لسانها قولها من بحر الوافر[3]:

أموت كما حييت لعرش مصر .·. وأبذل دونه عرش الجمال

---

(١) الشوقيات: ١/ ١٨ طبعة بيروت ٠
(٢) نفسه : ١/ ٦٦ بتصرف ــ طبعة بيروت٠
(٣) مصرع كليوباترا: ٩٣ ٠

ويعمق هذا المفهوم بدرجة أكبر، حين يجعلها تقدم عشقها للوطن على حبها لأنطونيوس حبيبها، فيجرى على لسانها أيضا قولها من بحر الخفيف[1]:

علم الله قد خذلت حبيبى ∴ وأبا صبيتى وعونى وذخرى
موقف يعجب العلا كنت فيه ∴ بنت مصر وكنت ملكة مصر

وأما عن الإشادة بالتاريخ، فإن التاريخ المصرى القديم يمثل ــ بالنسبة لشوقى ــ المجد والعرض والشرف الذى يجب صيانته والافتخار به ما دامت الحياة، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الاهتمام بمصر التاريخ "لم يكن وليد إعجاب فحسب، ولكنه وليد إحساس أصيل بالشخصية المصرية"[2].

ومن ثم، تجلت وطنيته، وجادت عبقريته بالعديد من الروائع التى يتغنى فيها بالتاريخ المصرى الوضاء،وبعظمة المصريين القدماء.

ها هو ذا يشيد بالحضارة المصرية القديمة، ويوضح كيف بلغ هؤلاء العظماء تلك الدرجة من المجد فى العلياء، فيقول من بحر الوافر[3]:

مشت بمنارهم فى الأرض (روما) ∴ ومن أنوارهم قبست (أثينا)
ملوك الدهر بالوادى أقاموا ∴ على وادى الملوك محجبينا

نلحظ أن فى إسناد الملوك إلى الدهر، إشارة إلى أن الإجلال والتقدير لهؤلاء العظماء باق لا ينتهى ما دامت الأرض والسماء.

وفى موقف آخر نلحظه يشيد بعظمة الأهرامات، حين يقف على قبر (نابليون) ويستحثه أن ينهض من رقدته، ليشخص هذا الجلال، فيقول من بحر الرمل[4]:

---

(١) مصرع كليوباترا: ١٩ بتصرف.
(٢) مجلة فصول: ٢/ ٣٢٥ بتصرف ــ الأستاذ/ عرفان شهيد ــ مقال بعنوان: شوقى ومصر الفرعونية.
(٣) الشوقيات: ١/ ٢٦٧ طبعة بيروت .
(٤) نفسه: ١/ ٢٥٨ بتصرف ــ طبعة بيروت .

قم إلى الأهرام واخشع واطرح ∴ خيلة الصيد وزهو الفاتحين
وتمهل إنما تمشى إلى ∴ حرم الدهر ومحراب القرون
وأعدها كلمات أربعا ∴ قد أحاطت بالقرون الأربعين
عظة قومى بها أولى وإن ∴ بعد العهد فهل يعتبرون؟

نلاحظ أن فى البيتين الأولين إيحاء بمدى الهيبة والجلال أمام هذا الأثر العظيم، ومن ثم آثر الألفاظ التى توحى بالتقديس مثل: (اخشع، تمهل، تمشى، حرم، محراب)، وفى البيت الثالث إشارة إلى الكلمة التى قالها (نابليون) يوما لجنوده يستحثهم على القتال "أيها الجنود، إن أربعين قرنا تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرامات"(١)، وفى هذا ما فيه من الاعتراف بعظمة المصريين القدماء، والإشادة بآثارهم الخالدة.

كل هذه الإشادة بالتاريخ وبأمجاد الفراعنة ما هى إلا تقرير لمدى وطنيته، وتأكيد لمدى شعبيته، وكأنه يريد بذلك "أن يستنقذ أبناء الشعب المصرى من مخالب الاستعمار الغاشم، ويبعثهم بعثا جديدا، يتلاءم وأمجاد أسلافهم الذين أورثوا الإنسانية هذا التراث الحضارى العظيم، محاولا بكل ما استطاع أن يحفز العزائم، ويثير الهمم؛ حتى يستعيدوا دورهم القديم فى التاريخ"(٢).

وأما عن الدعوة إلى الوحدة، فمن المعلوم أن شوقيا عاصر الحقبة التى جثم فيها الاستعمار على صدر الشعب المصرى الذى عانى من ويلاته، وقاسى من سياسته، وقد ناضل (رحمه الله) وجاهد فى مناهضة الاحتلال فيما قبل هذه المرحلة بعامة، وفى هذه المرحلة بخاصة.

(١) الشوقيات ــ هامش : ١/ ٢٥٨ بتصرف ــ طبعة بيروت .
(٢) فصول فى الشعر ونقده: ٣٤٣ بتصرف.

ها هو ذا يدعو شباب الشعب المصرى إلى النضال، حتى يتحقق أمل الاستقلال، فيقول من بحر الكامل[١]:

يا فتية النيل السعيد خذوا المدى ∴ واستأنفوا نفس الجهاد مديدا

نلاحظ أن فى التعبير بالفعل (استأنف) إشارة واضحة إلى مواصلة الجهاد، ما دامت الحياة فى الأجساد، وفى هذا ما فيه من الحث على التضحية، وبذل كل غال ونفيس من أجل هذا الوطن، ولن يتحقق الإخلاص فى النضال إلا بوحدة الصف، وما يترتب عليها من قوة تتمثل فى قوله من بحر الكامل[٢]:

صوت الشعوب من الزئير مجمعا ∴ فإذا تفرق كان بعض نباح

هكذا يحرص الشاعر على إبراز معنى الوحدة وتقريرها فى الأذهان، ولهذا كان يأسى أشد الأسى إذا ما عرض أى حادث يفتت من وحدة هذا الوطن: كاستنكاره حادث الاعتداء على (سعد زغلول) وما ترتب على ذلك من انفصام عرى الوحدة بين القطرين الشقيقين مصر والسودان[٣]، وكنعيه على تطاحن الأحزاب على السلطة، حين اتسع مفهوم الحرية للنظام البرلمانى فى عهد (الملك فؤاد)، نراه يصرخ فيهم بأعلى صوت يدوى فى جنبات هذا الوطن المكلوم، فيقول من بحر الوافر[٤]:

إلام الخلف بينكم إلا ما؟ ∴ وهذى الضجة الكبرى علاما؟
وأين الفوز؟ لا مصر استقرت ∴ على حال ولا السودان داما؟

يلاحظ إيثار الشاعر بحر (الوافر)، حيث تتلاحق حركاته وأوتاده، لتنسجم مع تلاحق أنفاسه، واضطراب أعصابه، كما آثر كون القافية حرف (الميم)، بما فيه من الجهر والشدة؛ ليتناسب ذلك

(١) الشوقيات: ١/ ١١١ طبعة بيروت ٠
(٢) نفسه: ٢/ ١٩٢ مطبعة مصر ٠
(٣) نفسه: ١/ ٢٦٥ طبعة بيروت ٠
(٤) نفسه: ١/ ٢٢١ بتصرف ــ طبعة بيروت ٠

مع شدة وتأجج عاطفة الغضب المسيطرة على الشاعر، وجعل القافية بحركة (الفتح)، لما فى الفتح من القوة والاستعلاء الذى يتناسب مع قوة السخط والغضب، كما تبدو براعته فى سبق القافية بألف المد ؛ كى تمنحه فسحة من الوقت لتفريغ شحنة الغضب الذى يمور بين جوانحه، ولم يكتف الشاعر بهذا كله، وكأنه أحس أنه غير كاف فى الإفصاح عما يعانيه، فأتى بألف الإطلاق وما لها من "رنين إيقاعى قوى مؤثر، حيث نبرة الاحتجاج الواضحة القوية، من خلال امتداد الصوت الذى يأمل الشاعر أن يطرق سمع الأحزاب فى كل زمان ومكان"(١).

وأما عن الدعوة إلى التقدم فإنه نظرا للحال السيئة التى منى بها واقع المجتمع المصرى آنئذ من فساد فى مختلف الأنشطة.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل صاحب هذا الفساد فى الأنشطة فساد فى العلم، حيث خلت الساحة، وعقم الزمان عن إنجاب نابه يخدم الوطن ويعوضه بنبوغه وعبقريته عن هذا التأخر الذى ألم به، نظرا لهذا كله، أعرب الشاعر عن أحاسيسه الملتاعة، ومشاعره الغاضبة إزاء هذا الوضع المزرى، والفساد المستشرى، حيث يقول من بحر الكامل(٢):

فاض الزمان من النبوغ فهل فتى ∴ غمر الزمان بعلمه وبيانه ؟
أين التجارة وهى مضمار الغنى ∴ أين الصناعة وهى وجه عنانه؟
أين الجواد على العلوم بما له؟ ∴ أين المشارك مصر فى فدانه؟
أين الزراعة فى جنان تحتكم ∴ كخمائل الفردوس أو كجنانه

نلاحظ أن فى التكرار لأداة الاستفهام (أين) إيحاء بمدى سخطه على هذا التأخر الذى آل إليه حال الشعب من جهة، واستنفارا لهمم

(١) موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور: ١٦٩ بتصرف.
(٢) الشوقيات : ١/ ٢٦١ طبعة بيروت.

الكسالى المتقاعسين عن الأخذ بيد هذا الوطن إلى الأمام من جهة أخرى.

جـ- الاهتمام بالشعب المصرى:

بمجرد عودة الشاعر من المنفى، زاد اهتمامه بالشعب المصرى عما قبل، وفى هذا تأكيد لشعبيته، وقد تمثل هذا الاهتمام فى حبه الصادق للجماهير، واهتمامه الزائد بتكوين علاقات شخصية، ثم تبلور هذا كله فى مقاسمته الشعب كل مشاعره وأحاسيسه، بالتعبير عن آماله وآلامه، وبيان ذلك بالتفصيل كما يلى.

أما عن الحب الصادق للجماهير، فحسبه أنه ألف إبان هذه المرحلة جميع مسرحياته التى لقيت نجاحا لا نظير له، ولشدة حرصه على إشباع رغبات الجماهير، وإرضاء أذواقهم، راعى فيها "العواطف الوطنية والقومية والأخلاقية والفكاهية، حتى الغناء والتلحين لم يفته فى بعض المواقف من حين لآخر"(١).

ومسرحية (مصرع كليوباترا) خير شاهد على ذلك، فحين نطالع الفصل الثانى نلحظ "منظر الوليمة يسوده طابع المرح والشراب والرقص، والإطالة فى مشهد الغناء، والازدواجية المتعمدة فى الأحداث بين السعادة تارة ، والشقاء تارة أخرى، كل ذلك كان لهدف إرضاء الجمهور الذى لا يقوى على تحمل المأساة المحضة بحكم ذوقه الفنى الضعيف"(٢).

كما تنازل عن أسلوبه الرصين إلى اللغة العامية البسيطة، بتأليفه الأغانى والأناشيد والأزجال لتلك الجماهير التى شدت بها فى كل زمان ومكان، ولاسيما أنه كان يتمتع بأذن موسيقية رائعة، لدرجة أن صفيه (محمد عبدالوهاب) الذى كان يتبعه كظله فى جميع رحلاته،

(١) فصول فى الشعر ونقده: ٣٤٧ بتصرف.
(٢) الأدب المقارن: ٣٣٣، ٣٣٤ بتصرف.

يقول عن نفسه: "لم يكن يبيح لى أن أذيع لحنا قبل أن يراجعنى فيه مرارا"[١].

ولم يكتف بهذا، بل حرص على تأليف الأناشيد للناشئة، ولشدة حرصه على غرس القيم الدينية والخلقية والاجتماعية، ألف الحكايات الرمزية على ألسن الطير والحيوان وعقد لها فصلا من ثمانين صفحة [٢].

هذا عن مدى حبه الصادق للجماهير على اختلاف أنواعهم وأذواقهم، وأما عن اهتمامه بتكوين علاقات شخصية، فقد "كان يغشى مجالس من يأنس بهم من الأصدقاء، يتعامل معهم بحياء شديد، ورقة ووداعة، وعفة لسان تنأى به عن أية خصومات، ولن يتحقق هذا كله إلا بإنسان من الله عليه بسماحة نفس، وطلاقة وجه، وخفة روح"[٣].

وهكذا كان شوقى (رحمه الله) شعبيا واجتماعيا من الدرجة الأولى، وحسبه أنه عقد مبحثا كاملا من اثنين وستين بيتا تحت عنوان (محجوبيات) [٤] وهى عبارة عن مداعبات وطرائف خاصة بصديقه الحميم الدكتور (محجوب ثابت) صاحب (مكسوينى) [٥] الحصان الهزيل الذى استبدل به سيارة عجيبة تغدو وتروح متى شاءت، فكانت حديث الجيران، ثم يصف شدة بخله مشبها مبلغ ألفى جنيه أودعها فى أحد البنوك، بالوقف الخيرى الذى يحرم التصرف

(١) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٦٦ .
(٢) الشوقيات: ٤/ ١٢٠ ــ ٢٠٠ طبعة بيروت.
(٣) بتصرف ــ الأعلام: ١/ ١٣٤ ، فصول فى الشعر ونقده: ٣٣٦، شوقى شاعر العصر الحديث: ٤١ .
(٤) الشوقيات : ٤/ ٢١٤ ــ ٢١٩ طبعة بيروت.
(٥) لقب اشتهر به أحد الأبطال الأيرلنديين الذى انتحر جوعا ــ الشوقيات ــ هامش: ٤/ ٢١٤ طبعة بيروت .

فيه، وقوامة البنك عليه إلى يوم الحساب، وأخيرا يصف لحيته غير المهذبة، والبراغيث المنتشرة حول فمه وشاربه، وإذا ما أقبل الضيف هشت لاستقباله، ورقصت أمامه زمرا زمرا على الطريق، ورافقته حتى باب العيادة فالسلم ٠

إلى غير ذلك من الطرائف التى تؤكد شعبيته واهتمامه الكبير بالصداقات الودية، والعلاقات الشخصية، وليس أدل على تلك الشعبية من المشاركة للشعب بمشاعره وعواطفه فى التعبير عن آماله وآلامه، ها هو ذا يبتهج نشوة وطربا بفرحة النصر فى ثورة ١٩١٩م، وينوه بالمشاركين فيها من شيبة وشبان، وإناث وذكران، فيقول من مجزوء الكامل[١]:

خرجت بنين من الثرى ∴ وتحركت منه بنات
حتى الشباب تراهم ∴ غلبوا الشيوخ على الأناة
وزنوا الرجال فكان ما ∴ أعطوا على قدر الزنات
الفكر جاء رسوله ∴ وأتى بإحدى المعجزات
عيسى الشعور إذا مشى ∴ رد الشعوب إلى الحياة

نلاحظ حرص الشاعر على الجمع بين البنين والبنات، والشباب والشيوخ، وفى هذا إيحاء باشتراك جميع طوائف الشعب فى تلك الثورة المباركة ، حتى يحوزوا شرف الجهاد والنضال من أجل رفعة هذا الوطن ٠

وما أن يأتى عام ١٩٢٤م إلا ويكتب القدر نجاة قائد الثورة (سعد زغلول) من محاولة اغتيال آثمة، ويبتهج الشاعر طربا بحفظ العناية الإلهية للقائد الذى تنعقد عليه الآمال بعد الله سبحانه، ها هو ذا يعبر عن مدى نشوته، ومنتهى فرحته بقوله من بحر المتقارب[٢]:

نجا وتمائل ربانها ∴ ودق البشائر ركبانها
وهلل فى الجو قيدومها ∴ وكبر فى الماء سكانها

(١) الشوقيات: ٣/ ٥٠ بتصرف ــ طبعة بيروت ٠
(٢) نفسه: ١/ ٢٦٢ طبعة بيروت ٠

تحـــول عنهـــا الأذى وانثنـــى ∴ عبـــاب الخطـــوب وطوفانهـــا
نجـا نوحهـا مـن يـد المعتـدى ∴ وضـــل المقاتـــل عـــدوانها

حين ننعم النظر فى تلك اللوحة الرائعة التى تنبض بالفرحـة، وتسودها روح الحركة والحيوية، وكأنما مستها عصـا سـحرية ـ نجده يتخيل الشعب المصرى داخل سفينة واحدة، ربانها فرد واحـد هو القائد المظفر الذى نجاه القدر من رصاصة صوبت نحـوه، وإذا بالركاب يدقون الطبول فرحا وابتهاجا بنجاته.

ثم تجود عبقريته بأسلوب التشخيص فى البيت الثـانى وكـأن السفينة نفسها أبت إلا أن تشارك الشعب فرحته، فهللـت مقـدمتها، وكبرت مؤخرتها، وكأنها شخص يعبر عن مدى نشـوته، ومنتهـى سعادته، ثم يكثف من خياله حين يشبه الزعيم القائد فى البيت الأخير بالنبى نوح (عليه السلام)، حيث إن كلا منهما بلغ الرسالة، وجاهـد من أجل أن يصل بقومه إلى شاطئ الأمان.

هذا عن مشاركته للشعب فى التعبير عن آمالـه، وأمـا عـن مشاركته فى آلامه فقد كانت من خلال الرثاء، وما أكثره فى ديوانـه لدرجة أنه استغرق الجزء الثالث بأكمله.

ها هو ذا يخص من بين المناضلين المجاهد: "محمد بك فريـد، الضحية الغالية للوطنية المصرية، الذى بذل كل ما ورثه عن والـده فى سبيل الوطن، وظل يجاهد حتى مات فقيرا معدما محكوما عليـه بالنفى والتشريد وعدم العودة إلى الـوطن إلا ميتـا"[1]، وقـد رثـاه الشاعر رثاء حارا، معبرا عن آلام الشعب، ها هو ذا يشير إلى موته فى المنفى بقوله من بحر الخفيف[2]:

مـن دنـا أو نـأى فـإن المنايـا ∴ غايـة القـرب أو قصـارى البعـاد
ذلـك الحـق لا الـذى زعمـوه ∴ فـى قـديم مـن الحـديث معـاد

(١) الشوقيات ـ هامش: ٣/ ٥٥ بتصرف ـ طبعة بيروت.
(٢) نفسه: ٣/ ٥٧، ٥٨ بتصرف ـ طبعة بيروت.

يتحلى به القوى ولكن ∴ كتحلى القتال باسم الجهاد
هل ترى كالتراب أحسن عدلا ∴ وقياما على حقوق العباد
نزل الأقوياء فيه على الضعـ ∴ ـفى وحل الملوك بالزهاد
قم إن استطعت من سريرك وانظر ∴ سر ذاك اللواء فى الأجناد
هل تراهم وأنت موف عليهم ∴ غير بنيان ألفة واتحاد
مصر تبكى عليك فى كل خدر ∴ وتصوغ الرثاء فى كل ناد
منتهى ما به البلاد تعزى ∴ رجل مات فى سبيل البلاد

نلاحظ مدى تهوين الشاعر من هول الفجيعة بموت البطل فى المنفى، وكأنه بذلك يعزى نفسه والشعب معه بأنه لا حواجز أمام القدر، القرب والبعد فيه سواء، وفى البيتين الثانى والثالث إيحاء بأن الحق الخالص فى هذه الدنيا لا يكون إلا للقوى، وكأنه بذلك يبث الحمية والحماس فى نفوس الشعب المصرى ببذل كل غال ونفيس من أجل هذا الوطن، حيث إن العصر عصر القوة، ولا مكان فيه للضعيف.

وما أن يأتى عام ١٩٢٦م إلا وتتجدد الآلام بحلول الذكرى الثامنة عشرة للمجاهد الشاب (مصطفى كامل)، ويرثيه الشاعر فى حفل خاص، أقيم تمجيدا لهذه المناسبة، فيقول من مجزوء الخفيف[1]:

لم يمت من له أثر ∴ وحياة من السير
ادعه غائبا وإن ∴ بعدت غاية السفر
آيب الفضل كلما ∴ آبت الشمس والقمر
أعوز الحق رائد ∴ وإلى مصطفى افتقر
الذى ينفذ المدى ∴ والذى يركب الخطر
أيها القوم عظموا ∴ واضع الأس والحجر
اذكروا الخطبة التى ∴ هى من آيه الكبر
كلما راح أو غدا ∴ نفخ الروح فى الصور

نلاحظ أن الشاعر استهل هذه المرثية بالتصريع؛ ليؤكد امتداد عمر البطل المجاهد إلى ما شاء الله، حيث الثناء العطر الدائم بما

(١) الشوقيات: ٣/ ٩١، ٩٢ بتصرف ــ طبعة بيروت.

خلف من آثار وبصمات غيرت مسار الشعب إلى الأمام، ثم يؤكد هذه الحقيقة بأن هذا الفضل الذى أحدثه دائم التجدد كل صباح ومساء، ومن ثم، فهو لم يمت، غاية الأمر أنه فى سفر، بيد أنه سفر طويل، وفى التعبير بقوله: (اذكروا الخطبة...) إشارة إلى آخر خطب البطل، التى ظنها الناس يومئذ خطبة الوداع، وفى هذا ما فيه من الإشادة بخطبه الحماسية التى أعادت الحياة إلى الشعب، فكانت بمثابة الوقود الذى يلهب العزائم، ويؤجج المشاعر، من أجل مناهضة الاحتلال، والمطالبة بالاستقلال.

وما أن يهل العام التالى ١٩٢٧م، إلا وتختطف المنية الزعيم القائد (سعد زغلول)، ويرثيه الشاعر بقصيدة تعبر عن مدى النشيج والنواح والشقاء الذى منيت به مصر كلها بفجيعتها فى فلذة كبدها، حيث يقول من بحر الرمل[1]:

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها ∴ وانحنى الشرق عليها فبكاها
جلل الصبح سوادا يومها ∴ فكأن الأرض لم تخلع دجاها
انظروا تلقوا عليها شفقا ∴ من جراحات الضحايا ودماها
ما درت مصر بدفن صبحت ∴ أم على البعث أفاقت من كراها
صرخت تحسبها بنت الشرى ∴ طلبت من مخلب الموت أباها

نلاحظ أن فى التعبير بالفعل (صرخت) مبالغة قوية تفيد مدى التأثر الذى ألم بمصر من جراء هذا الحدث ، وفى الوصف لها (ببنت الشرى) تشبيه بليغ يصورها وكأنها أنثى الأسد، تجأر بصوتها الجهورى؛ كى تنقذ أباها من مخلب الموت، وفى هذا ما فيه من التجسيد لمدى إقدام وجسارة الزعيم، فى المطالبة باستقلال هذا الوطن العظيم.

وهكذا لحظنا بجلاء مدى حرص الشاعر على مشاركة الشعب بمشاعره الصادقة فى التعبير عن آماله وآلامه، وفى هذا تأكيد

(١) الشوقيات: ٣/ ١٧٤، ١٧٦ بتصرف ــ طبعة بيروت.

لوطنيته، وتقرير لمدى شعبيته التى لازمته طوال حياته بعامة، وخلال هذه المرحلة بخاصة، ولتجسيد هذه الشعبية بشكل أعم وأوسع، نجده لا يكتفى بتلك المشاركة الإيجابية الفعالة على المستوى المحلى فقط، بل حرص على أن تكون على المستوى العربى والعالمى، وذلك ما سنتعرف عليه من خلال ما يلى:

د ـ التغنى بالعروبة وبالعالمية:

لم يكتف الشاعر بالاهتمام بالشعب فقط، بل تخطى الحدود، وحلق فى الآفاق حتى أصبح "شاعر مصر والشرق والعالم الإسلامى، فجرى شعره على كل لسان"(١) .

فإذا ما أتينا إلى عام ١٩٢٤م نجد الزعيم (سعد زغلول) رئيس الوزارة المصرية حينئذ، بينما يتهيأ لمفاوضة الإنجليز بلندن، إذا بشوقى ينشده هذه الرائعة باسم الشعبين: المصرى والسودانى، مبرزا ما يأملان فيه من الدفاع عن حقوقهما المشروعة، فيقول من بحر المتقارب(٢):

ويا سعد أنت أمين البلاد .:. قد امتلأت منك أيمانها
ولن ترضى أن تقد القناة .:. ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصباح .:. وليس بمعيبك تبيانها

وفى عام ١٩٢٦م يأسى الشاعر ويأسف على ما أصاب (دمشق) من ضرب الأسطول الفرنسى لها بمدافعه، وانبرى ـ فى صدق وحماس بالغين ـ يواسى الشعب المكلوم، بقوله من بحر الوافر(٣):

وللأوطان فى دم كل حر .:. يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب .:. بكل يد مضرجة يدق

---

(١) الأعلام : ١/ ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٢) الشوقيات : ١/ ٢٦٥ طبعة بيروت .
(٣) نفسه : ٢/ ٧٦، ٧٧ بتصرف ـ طبعة بيروت .

ونسير معه إلى عام ١٩٣١م، فنجده يرثى (الملك حسين بن على) ملك الحجاز الذى جاهد ضد الأتراك من أجل تحرير الجزيرة العربية، ويشيد بمكانته، حيث يقول من بحر الخفيف[١]:

لك فى الأرض والسماء مآتم ∴ قام فيها أبو الملائك هاشم
المنايا نوازل الشعر الأبى ∴ يض جارات كل أسود فاحم
المناحات فى ممالك أبنا ∴ ك بدرية العزاء قوائم
قبرص كانت الحديد وقد تنـ ∴ زل قضبانه الليوث الضراغم

نلاحظ أن فى التعبير (بأبى الملائك) إشارة إلى مدى المنزلة التى كان يتبوؤها هذا المجاهد، وفى التعبير (بهاشم) إشارة أخرى إلى طهارة الأصل، وشرف النسب الذى ينتمى إلى أحد أجداد النبى (ﷺ)، وفى الوصف لقبرص (بالقفص الحديدى) إشارة إلى مدى جسارة وشجاعة هذا المجاهد الذى يحاكى الأسد داخل الأسوار الحديدية، وذلك أيام إقامته بقبرص إثر اعتزاله الملك.

وأخيرا وفى العام نفسه، يلقى البطل الليبى المقدام (عمر المختار) حتفه شهيدا فى الميدان، بعد جهاد مرير ضد الطليان، وتجود عبقرية الشاعر بهذه المرثية التى حمل فيها على إيطاليا، وأنذرها بثأر أشد وأنكى، حيث يقول من بحر الكامل[٢]:

ركزوا رفاتك فى الرمال لواء ∴ يستنهض الوادى صباح مساء
يا ويحهم نصبوا منارا من دم ∴ يوحى إلى جيل الغد البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة فى غد ∴ بين الشعوب مودة وإخاء
جرح يصيح على المدى وضحية ∴ تتلمس الحرية الحمراء
إفريقيا مهد الأسود ولحدها ∴ ضجت عليك أراجلا ونساء
وأتى الأسير يجر ثقل حديده ∴ أسد يجرر حية رقطاء
عضت بساقيه القيود فلم ينؤ ∴ ومشت بهيكله السنون فناء
لبى قضاء الأرض أمس بمهجة ∴ لم تخش إلا للسماء قضاء
يا أيها الشعب القريب أسامع ∴ فأصوغ فى عمر الشهيد رثاء؟
ذهب الزعيم وأنت باق خالد ∴ فانقد رجالك واختر الزعماء

(١) الشوقيات: ٣/ ١٥٠، ١٥١ بتصرف ــ طبعة بيروت.
(٢) نفسه: ٣/ ١٧ ــ ١٩ بتصرف ــ طبعة بيروت.

وأرح شيوخك من تكاليف الوغى .·. واحمل على فتيانك الأعباء

نلاحظ فى هذه المرثية مدى تأثر الشاعر بهذا الحدث الجلل، ومدى تمجيده لهذا الشهيد البطل، يتجلى ذلك فى التعبير بالفعل (ركزوا) دون (نصبوا أو وضعوا) إشارة إلى أن رفات هذا المجاهد المقدام كنز نفيس يهيب بقومه صباح مساء أن يثأروا له، وفى هذا ما فيه من الإنذار والوعيد والتهديد للطليان، كما نلاحظ أن فى التعبير بأداة النداء (يا أيها الشعب) تأكيدا لمدى بعد المكانة، وسمو المنزلة التى يتبوؤها هذا الشعب الأبى من قلبه، ومن ثم نجده يفصح عن مدى صدق وطنيته حين يهدى أغلى النصائح للشعب الليبى أن ينتقى زعماءه، ويعفى شيوخه من أثقال الحرب، ويكلها إلى الأباة من شبابه.

إثر هذا العرض، نلاحظ أن الشاعر لم يكتف بهذين المحيطين من حوله فى مصر والوطن العربى، بل نلحظه يجد فى البحث عن شخصيات وأحداث عالمية لها أثرها الفعال فى المجتمع الغربى، وكأنه يريد بذلك أن يخاطب أكبركم من الجماهير، حتى يمتد صوته إلى ما لا نهاية ، وفى هذا ما فيه من الإلحاح على التأكيد لشعبيته الجارفة، وشهرته الذائعة التى طبقت الآفاق.

ولشدة حرصه على تلك العالمية، نجد ذلك لم يقتصر على مرحلة معينة، وإنما ساد كل مراحل حياته الثلاث، فنراه يرثى كثيرا من الشخصيات، أمثال: اللورد كتشنر، ومحمد على زعيم مسلمى الهند، وشكسبير الكاتب الإنجليزى، وفيكتور هيجو الشاعر الفرنسى، وفردى الموسيقى الإيطالى، ونابليون القائد الفرنسى، وتولستوى الفيلسوف الروسى، وعثمان باشا، وأدهم باشا القائدين التركيين، وفتحى ونورى الطيارين التركيين أيضا، وأم المحسنين والدة الخديو إسماعيل، والأميرة فاطمة كريمته.

ليس هذا فحسب، بل نلحظه يرثى الأمم والحضارات، ويجزع للحوادث والنكبات، فيتأثر بزلزال طوكيو فى اليابان، ويجزع لباريس حين غزاها الألمان، ويرثى روما وحضارتها الداثرة، وأدرنة العثمانية حين سقطت فى أيدى البلغار.

هذا ولم يقتصر فى عالميته على مجال الرثاء للأشخاص والممالك الزائلة، بل نجده يشيد بالزعيم الهندى غاندى، ويبتهج بانتصار مصطفى كمال أتاتورك فى الحرب والسياسة، ويهنئ الأميرة فتحية بدوام العافية، ويطير فرحا بنجاة السلطان العثمانى عبدالحميد من قذيفة ألقاها نصارى الأرمن عليه[1].

ونخص من ذلك نموذجين للتأكيد على مدى شعبيته

أما النموذج الأول فالدافع إليه هو اهتمام الشاعر بالفقراء والإشادة بمن يحبهم، ويعطف عليهم، يبدو هذا جليا من خلال رثائه (تولستوى) الفيلسوف الروسى الشهير الذى زهد فى الدنيا، وذلك من خلال تلك القصيدة التى استهلها بقوله من بحر الطويل[2]:

(تولستوى) تجرى آية العلم دمعها .: عليك ويبكى بائس وفقير

يلاحظ براعة الاستهلال فى هذا المطلع الذى أجمل فيه الشاعر صفات هذا الفيلسوف منذ الوهلة الأولى، فقد كان عالما وشاعرا وفيلسوفا، بالإضافة إلى نبل مشاعره ، ورقة أحاسيسه لدرجة دفعته إلى التخلى عن كل ما يملك ليتساوى بالفقراء.

وأما النموذج الثانى فالدافع إليه هو التدين وشدة الحرص على وحدة المسلمين وعزة الإسلام، وفى هذا ما فيه من الإرضاء لأذواق الجماهير، والإشباع لرغباتهم الدينية، ويتمثل ذلك فى الإشادة

---

(١) ينظر الشوقيات: ١/ ٥٩ ، ٩٢، ٢٣٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢/٦ ، ٨٥، ١٦٠، ٣/ ١٢، ٤٩، ٧١، ٨٨، ١١٦، ١٤٠، ١٦٣، ١٨٠، ٤/ ٧٤، ٨٣ طبعة بيروت .

(٢) نفسه : ٣/ ٨٠ طبعة بيروت .

بالغازى (مصطفى باشا كمال) حين وثب وثبته القوية، وما ترتب عليها من انتصار (تركيا) فى الحرب والسياسة عام ١٩٢٣م، عندئذ طار الشاعر فرحا، وانبرى يتحدث عن هذا النصر المظفر حديث المسلم المبتهج بانتصار قائد مسلم فى معركة إسلامية، وبعد الإشادة ببطولته وبمن كانوا معه، إذا به يوسع دائرة الفرحة التى توجت هذا النصر، بقوله من بحر البسيط[١]:

وأرج الفتى أرجاء الحجاز وكم ∴ قضى الليالى لم ينعم ولم يطب
هزت دمشق بنى أيوب فانتبهوا ∴ يهنئون بنى حمدان فى حلب
ومسلمو الهند والهندوس فى جذل ∴ ومسلمو مصر والأقباط فى طرب
وممالك ضمها الإسلام فى رحم ∴ وشيجة وحواها الشرق فى نسب

نلاحظ أن فى الأبيات الثلاثة الأول إيحاء بأن العالم الإسلامى كله فى أعراس وأفراح، فالحجاز والشام والهند ومصر، الجميع يعيش لحظات النصر فى بهجة وانشراح، أما البيت الأخير ففيه إشارة إلى أن الإسلام هو أجل وأعظم رباط وثيق يربط بين المسلمين والأتراك.

إثر هذه الشعبية الجارفة على المستوى العربى والعالمى، ألا يستحق هذا الشاعر أن يكرم على كافة المستويات بلا مدافع، وبفضل الله قد حظى بهذا التكريم قبل وفاته بخمس سنوات، ففى يوم مشهود من تاريخنا الأدبى عام ١٩٢٧م ، أقيم ــ بدار الأوبرا الملكية بالقاهرة، وبرعاية صاحب الجلالة (الملك فؤاد الأول) ــ المهرجان الكبير الذى اشترك فيه شعراء العربية من كل الأقطار، وأجمعوا على اختياره أميرا للشعراء ، وما كان من صفيه الحميم (حافظ إبراهيم) إلا أن أعلن هذا التتويج، وسط عاصفة من الهتاف والتصفيق، حين قال من بحر الطويل[٢]:

أمير القوافى قد أتيت مبايعا ∴ وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

(١) الشوقيات : ١/ ٦٤ طبعة بيروت .
(٢) ديوان حافظ إبراهيم : ١٢٨ .

وحسب شاعرنا فخرا وعزا، أن مما كان له أعمق الأثر فى نفسه خلال هذا المهرجان "أن أحد المجاهدين للفرنسيين من بدو سورية الضاربين فى صحرائها نهض من مكانه، وقدم إليه صحيفة بيعة بإمارته موقعة بدمه ودماء رفقائه البدو الأحرار المكافحين، وتسلم شوقى منه الرسالة ، والدموع تترقرق فى عينيه، فقد بايعه أرباب السيف، كما بايعه أرباب القلم"(١).

وهكذا كانت مظاهر الشعبية فى شعر شوقى بهذا المستوى من الذيوع؛ لأنه أحب الشعب ، ولم ينفصل عنه فى يوم من الأيام، وكانت شعبيته تزداد يوما بعد يوم فى جميع مراحل حياته، حتى بلغت أوجها إثر العودة من منفاه، وكان لتلك الشعبية العديد من المظاهر التى تؤكدها كما سبق ، من خلال عبقرية شعرية فائقة ، وليس معنى ذلك أن الشاعر مبرأ من الأخطاء ، فقد زلت قدمه فى غير القليل منها ، ذلك ما سنعرفه من خلال المبحث التالى.

(١) مجلة فصول: ٢/ ١٧٢ د/ شوقى ضيف ــ مقال بعنوان: حافظ وشوقى وزعامة مصر الأدبية.

المبحث الرابع
مآخذ على الشاعر

بالتصفح لأشعاره نماذج الدراسة، لوحظ وجود العديد من المآخذ التى تنوعت ما بين المبالغة غير المقبولة ، والأرستقراطية فى اللغة والخيال ، والأخطاء العروضية، وبيان ذلك كما يلى :

أولا ـ المبالغة غير المقبولة:

عندما ننعم النظر فى هذا اللون نلحظ أن منه ما يتصل بالوطن ، ومنه ما يتصل بأصحاب العرش ، وكلا النوعين غير مقبول؛ لما فيه من المغالطة الدينية التى لا تتفق وشرع الله سبحانه.

أما ما يتصل بالوطن فقد بلغ مدى عشقه والانتماء إليه درجة "التقديس والعبادة"(١) ، فمصر الكنانة دينه ومعبوده لدرجة أنه لو لبى داعى الشهادة من أجلها، لولى إليها وجهه قبل البيت الحرام، إذ يقول من بحر الكامل(٢):

وجه الكنانة ليس يغضب ربكم ∴ أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولوا إليه فى الدروس وجوهكم ∴ وإذا فرغتم واعبدوه هجودا

ويقول أيضا من بحر الوافر(٣):

ولو أنى دعيت لكنت دينى ∴ عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليه قبل البيت وجهى ∴ إذا فهت الشهادة والمتابا

ليس هذا فحسب، بل نلحظه يمعن فى المبالغة نحو عشقه للوطن لدرجة أنه لو شغل عنه بالسكنى فى جنة الخلد لهفت نفسه إليه، شوقا وحنينا، حيث يقول من بحر الخفيف(٤):

وطنى لو شغلت بالخلد عنه ∴ نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

---

(١) الشوقيات ــ المقدمة بقلم د/ محمد حسين هيكل : ١/ ٥، طبعة بيروت، شوقى شاعر العصر الحديث : ٢٨ .
(٢) الشوقيات : ١/ ١١١ طبعة بيروت.
(٣) نفسه : ١/ ٦٦ طبعة بيروت.
(٤) نفسه: ٢/ ٤٦ طبعة بيروت .

إن هذا يعنى إمكانية المغادرة لجنة الخلد من أجل الوطن، متى سنحت الفرصة بذلك، وفى هذا ما لا يخفى من المخالفة الصريحة لشرع الله، إذ إن أهل الجنة إثر النعيم بدخولها، لا يرضون بديلا لها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾[1].

ولكى يترجم الشاعر هذه الدرجة من العشق للوطن، نجده تارة يرى ــ لحظة الاستعراض لذكريات مرحلة الشباب فى رحابه ــ أن جنة هذه المرحلة رغم قصرها، تفوق جنة الآخرة، فيقول من بحر الرمل[2]:

يتمنى الشيخ منه ساعة ∴ بحجاب السمع أو نور البصر
ليس فى الجنة ما يشبهه ∴ خفة فى الظل أو طيب قصر
فصبا الخلد كثير دائم ∴ وصبا الدنيا عزيز مختصر

كأنه يعنى الوصف لجنة الآخرة بالدونية! كيف وقد وصفها (ﷺ) بقوله: "فى الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[3]، وإذا كانت مرحلة الشباب بهذا القصر، فليمتع الشباب أنفسهم باللذات دون حرج، هكذا يزعم حين يقول من بحر الرمل[4]:

روحوا القلب بلذات الصبا ∴ فكفى الشيب مجالا للكدر

لم يكتف بهذا، بل نلحظه يصرح بأساليب الترويح بهذا المنهج، فيقول من مجزوء الكامل[5] :

واقضوا الشباب فإن سا ∴ عته القصيرة فانيه

---

(١) الكهف : ١٠٧، ١٠٨ .
(٢) الشوقيات : ٣/ ١٢٥ طبعة بيروت .
(٣) رياض الصالحين : ٣٠٠ ــ حديث رقم: ١٨٩٤ ، إحياء علوم الدين: ٤/ ٥٣٧ .
(٤) الشوقيات: ٣/ ١٢٨ طبعة بيروت .
(٥) نفسه: ٤/ ٧٠ طبعة بيروت .

والله لا حـــــرج عليـــــــ ∴ كـــم فـــى حـــديث الغانيـــه
أو فـــى اشـــتهاء الســـحر مـــن ∴ لحـــظ العيـــون الســـاجية

أمام هذا المنهج لا نستطيع إلا أن نقرر أن هذه دعوة صريحة إلى الغواية، وأن الترويح بهذا الإطلاق، ينأى عـن روح الشـريعة الغراء، التى تؤيد الترويح لكن فى إطار مـن الضـوابط الشـرعية، والشاعر قد أغفل تلك الضوابط التى صرح بها القرآن الكريم، فبعـد أن ذكر الله "ولا تنس نصيبك من الدنيا" عقب بقوله سبحانه: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

وتارة أخرى نلحظه يؤكد على ضرورة الوحدة الوطنيـة بـين عنصرى الأمة، حين يشيد بالإخوة الأقباط، فيقول من بحر الكامل[2]:

نعلـى تعـاليم المسـيح لأجلـهم ∴ ويـــوقرون لأجلنـــا الإســـلاما

فالتعبير بإعلاء المسلمين تعـاليم المسـيح، إكرامـا للإخـوة الأقباط، فيه مخالفة شرعية؛ لأننا كمؤمنين نصدق بعيسـى (عليـه السلام)، ونجل نسبه، طاعة للشرع الحنيف، وليس مرضاة لإخواننا، فجميع الرسل والأنبياء لدينا سواء : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

وبعد، فما عرفنا عن الشاعر سوى التدين وقوة الإيمان بـالله سبحانه، وحسبه روائعه الدينية المعروفة: كنهج البـردة، وذكـرى المولد، وإلى عرفات الله، وغيرها، أضف إلى ذلك أشعاره الروحيـة فى الخلافة الإسلامية، تلك الأشعار التى تؤكد مدى حرصه على وحدة الأمة المحمدية، لكن ما دفعه إلى هذا اللون من المخالفات الشـرعية

(١) القصص : ٧٧ .
(٢) الشوقيات: ٣/ ١٤٥ طبعة بيروت.
(٣) البقرة: ٢٨٥ .

سوى العشق للوطن، والمبالغة المفرطة فى الانتماء إليه لدرجة هوت به إلى التورط فى مثل هذا النوع من المآخذ.

وأما ما يتصل بأصحاب العرش فها هو ذا يشيد بالخديو عباس حين يصفه بأنه العاصم الوحيد لحق مصر فى المطالبة بالدستور حيث يقول من بحر الوافر[1]:

تـرى فيـه الصيان لحـق مصـر ∴ فلـولا العـرش يعصـمه لضـاعا

ففى القصر لعصمة الحق المصرى وحفظه على عرش ولى نعمته، مخالفة شرعية ؛ لأن العاصم والحافظ الحقيقى هو الخالق سبحانه، وكان الأولى أن يقول: (فلولا الحق) ويكون بذلك قد أضاف إلى البيت محسنا بديعيا يتمثل فى الجناس التام بين كلمتى (الحق) فى الشطرين، ويكون المراد بالأولى الشورى والديمقراطية فى الحكم، وبالثانية الخالق سبحانه.

ليس هذا فحسب، بل إنه فى مقام آخر يأتى بما هو أدهى وأمر، حين نجده "يقدم القرابين والصلوات لهذا الفرد الذى يعبده ويسبح بحمده"[2] حيث يرسم له تلك الصورة القدسية حال حجه بيت الله الحرام: فمواكب الملائكة فى استقباله، وفى مقدمتهم (جبريل) الموفد من قبل الحق سبحانه برسائل الرحمة ، كى يسلمها إياه، كيف لا! وهو خير من حج البيت، ومن ثم كانت الحظوة بتحية الرسول الكريم (ﷺ) له وكافة الخلفاء الراشدين، هكذا يحدثنا بقوله من بحر الطويل[3]:

إلى عرفـات الله يـا خـير زائـر ∴ عليـك سـلام الله فـى عرفـات
علـى كـل أفـق بالحجـاز ملائـك ∴ تـزف تحايـا الله والبركـات
لدى الباب جبريل الأمين براحه ∴ رسـائل رحمانيـة النفحـات

(١) الشوقيات: ١/ ١٨٤ طبعة مصر.
(٢) شوقى شاعر العصر الحديث: ١٤٠ بتصرف .
(٣) الشوقيات: ١/ ٩٨، ٩٩ بتصرف طبعة بيروت.

يحييك طه فى مضاجع طهره ∴ ويعلم ما عالجت من عقبات
ويثنى عليك الراشدون بصالح ∴ ورب ثناء من لسان رفات

لا يخفى على ذى بصيرة أن السبب فى هذا اللون من المبالغات يكمن فى مدى حرص الشاعر على تأكيد رابطة الدم التركى بينه وبين أصحاب العرش من جهة، والحفاظ على الجاه والمنصب فى رحاب القصر من جهة أخرى.

وهذه ــ لعمرى ــ حيلة بارعة ، وما كان أغناه عن هذا الهوى من أبراجه العالية، لولا تلك الفطنة والدبلوماسية الراقية؛ إرضاء للقصر وللحاشية، من أجل الشعب وأحواله الباكية.

ثانيا ـ الأرستقراطية فى اللغة والخيال:

حين ننعم النظر فى لغة الشاعر ، نلحظ أنها تميل ــ فى الغالب ــ إلى الجزالة والفخامة بعيدا عن الضبابية والمعجمية إلا نادرا، وتلك براعة فائقة تحسب له، وفى الوقت نفسه يميل إلى الأرستقراطية اللفظية أحيانا: ففى سياق الحديث عن الألقاب الملوكية، يؤثر هذه الكلمات: "المعالى، الجناب، العرش، المقام، عزة الحجاب، سدة الباب"(١)، وفى سياق الحديث عن المعادن النفيسة والأحجار الكريمة، يؤثر هذه الكلمات: "الذهب، الكنوز، القناطير، الإكسير، وهو مادة مركبة كان القدماء يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب، وشراب يبعث القوة فى الجسم ويطيل الحياة على حد زعمهم، والعقيان، جمع عقيق وهو أحد الأحجار الكريمة التى تستخدم للزينة، لونه أحمر، تصنع منه الفصوص، واليواقيت، جمع ياقوتة، وهى من أكثر المعادن صلابة بعد الماس، ولونها شفاف مشرب بحمرة أو زرقة أو صفرة"(٢)، وفى سياق الحديث عن الفخم

(١) الشوقيات: ١/ ١٨٤، ١٨٥، ٢٤٢، ٢/٥١، ٤/ ٤٣، ٢٠٧، ط بيروت (د.ت) ، ط مصر ١٩٣٩م، ١٩٧٠م، مصرع كليوباترا: ٩٣ .
(٢) الشوقيات: ٢/ ٤٧، ١٠٧، ١٠٨ ط بيروت (د.ت) ، ط مصر ١٩٧٠م، المعجم الوجيز: ٢١، ٤٢٨، ٦٨٦ .

من الثياب، يؤثر التعبير بهذه الألفاظ "الخمائل جمع خميلة، وهى الثوب يصنع من القطيفة وتترك له فضول، والسندس، وهو ضرب من الديباج الرقيق، والغلالة، وهى الثوب الرقيق الشفاف يلبس تحت الدثار"(١) وفى سياق الحديث عن الروائح العطرية ينتقى "الكافور الذى يعنى مجموعه أخلاط من الطيب"(٢).

هذا عن الأرستقراطية فى اللغة ، وأما عن الأرستقراطية فى الخيال، فإنه ــ فى بعض الأحيان ــ لا يستغنى عن بعض الصور المحلقة فى سماء برجه العاجى: من ذلك قوله من بحر البسيط(٣):

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ∴ ولم يهن بيد التشتيت غالينا

نلحظ مدى فخره واعتزازه بمصريته، حين يشبه المصريين هذا التشبيه الأرستقراطى، فهم كالياقوت الذى صهرته النار حتى يتميز جيده من رديئه، وفى هذا إشارة بالغة إلى مدى تميز المصريين القدماء بالأصالة وكرم المعدن بخاصة، أما المصريون بعامة فهم كالياقوت المنصهر، لا تزيدهم الشدائد إلا قوة وصلابة.

ويأبى الشاعر إلا أن يؤثر بالوصف بعض مظاهر تلك العظمة والفخامة المصرية، من ذلك: وصفه للأهرامات بقوله من بحر البسيط(٤):

كأنها تحت لألاء الضحى ذهبا ∴ كنوز فرعون غطين الموازينا

نلحظ مدى روعة هذا الخيال الأرستقراطى للأهرامات لحظة أن ترسل الشمس أشعتها الذهبية التى تكسو البسيطة حلة صفراء، حينئذ

---

(١) الشوقيات: ٢/ ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨ ط بيروت (د.ت)، المعجم الوجيز: ٢١٢، ٣٢٤، ٤٥٤ .

(٢) الشوقيات: ٢/ ١٠٥ ط بيروت (د.ت) ، لسان العرب : ٣٩٠١/٥

(٣) الشوقيات: ٢/ ١٠٧ ط بيروت (د.ت) .

(٤) نفسه : ٢/ ١٠٨ ط بيروت (د.ت).

تبدو وكأنها كنوز فرعون الذهبية التى عمد إلى وزنها، فغطت الموازين لضخامة حجمها.

ويهيم بسحر الطبيعة المصرية ويؤثر منظر الشمس على صفحة النيل الخالد وقت الضحى، فيقول من بحر البسيط[1]:

والشمس تختال فى العقيان تحسبها ∴ بلقيس ترفل فى وشى اليمانينا
إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا ∴ خمائل السندس الموشية الغينا

نلحظ إيثار الشاعر هذا التصوير الملوكى حين يستغل عبقريته فى الجمع بين القديم والحديث، أما القديم فإنه يتمثل فى تشبيه الشمس بالملكة (بلقيس)، وفى هذا إيحاء بأصالة الحضارة المصرية الموغلة فى القدم، وأما الحديث فإننا نلحظه فى تلك الصور الأرستقراطية الحالمة: فالشمس تحاكى غادة حسناء، ترفل فى وشيها، وتختال فى عقيانها، ثم ها هو ذا يكثف من سحر الخيال حين يؤثر وقت الضحى الذى يبرز الشمس فى أبهى حللها، ويدير حوارا غزليا رومانسيا بين الشمس والشاطئين الذين لبسا الخمائل السندسية، وبديا فى أجمل صورة طبيعية.

وأخيرا يشبه مدى تأثير النيل الساحر فى التربة المصرية التى يفعل فيها فعله، وكأنما مستها عصا سحرية، فما أن يشق ماؤه فجاجها، ويتغلغل فى تضاعيفها، إلا ويحولها ذهبا فتؤتى ثمارها، كل حين بإذن ربها ــ هكذا يصور ذلك بقوله من بحر البسيط[2]:

ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا ∴ ماء لمسنا به الإكسير أو طينا

(١) الشوقيات : ٢/ ١٠٧، ١٠٨ ط بيروت (د.ت).
(٢) نفسه : ٢/ ١٠٧ ط بيروت (د.ت).

تعقيب

إزاء هذا اللون من التعبيرات والأخيلة الأرستقراطية، لا نملك سوى التماس العذر للشاعر الذى ولد وفى فمه ملعقة من ذهب كما يقولون، ومن ثم نهج هذا النهج؛ إرضاء لبيئة الخاصة أولا، ولحياته الهانئة ثانيا، وما كان أغناه عن هذا كله، وهو الترجمان الحقيقى للشعب لدى القصر، كان الأولى أن ينزل إلى مستوى الشعب الذى استوعب جميع مظاهر شعبيته فى شعره، وهذا هو السبب الحقيقى الذى دفع جل الباحثين إلى الحديث عن الشعبية فى شعره حديثا عابرا بحجة نشأته الأرستقراطية، ومن هنا تكمن أهمية تلك الدراسة التى سلطت الأضواء على هذا الجانب ، لإثبات مدى عبقريته ونهاية شاعريته التى مكنته بجدارة أن يأتى ــ رغم كل ما سبق ــ بالتعبيرات السهلة البسيطة النابعة من صميم البيئة المصرية والملائمة لمشاعر الشعب وطبقاته الكادحة على النحو التالى:

ها هو ذا يشاهد مدينة قرطبة الغراء إبان نفيه، فيجتر آلام الذكريات، ويؤكد شعبيته بإيثاره لفظ (قرية) أن يكون علما على تلك المدينة فيقول من بحر الخفيف[1]:

قرية لا تعد فى الأرض كانت ∴ تمسك الأرض أن تميد وترسى

وحين يهدى نصائحه إلى الملوك بضرورة استرضاء الشعوب نجده يلمح إلى قول العوام (الزمن غدار)، فيقول من بحر الخفيف[2]:

والليالى جوائر مثلما جا ∴ روا وللدهر مثلهم أهواء

وينتهز فرصة الإشادة بالملك(إدورد السابع) ويوثر لفظ (النمل) كتعبير شعبى يشير إلى الكثرة فى العدد، فيقول من بحر الطويل[3]:

تحيط به كالنمل فى البر خيله ∴ وتملأ آفاق البحار مراكبه

---

(١) الشوقيات: ٢/ ٤٩ ط بيروت (د.ت) ٠
(٢) نفسه: ١/ ٢٠ ط بيروت (د.ت)٠
(٣) نفسه: ١/ ٨٢ ط مصر ١٩٧٠م٠

وفى سياق وصفه لوطنية (كليوباترا) نجده يصفها بأنها (بنت مصر) ويجرى على لسانها هذا التعبير الشعبى عن زوجها: (حبيبى وأبا صبيتى) فيقول من بحر الخفيف[١]:

علم الله قد خذلت حبيبى ∴ وأبا صبيتى وعونى وذخرى
موقف يعجب العلا كنت فيه ∴ بنت مصر وكنت ملكة مصر

بالإضافة إلى هذه التعبيرات الشعبية، نجده يشير إلى بعض الظواهر الشعبية: كظاهرة محو الأمية حين يحدثنا عن أهمية الصحافة بقوله من بحر المتقارب[٢]:

وتمشى تعلم فى أمة ∴ كثيرة من لا يخط الألف

وكظاهرة (أبراج الحمام) حين يستعرض حادثة (دنشواى) فيقول من بحر الكامل[٣]:

يا ليت شعرى فى البروج حمائم ∴ أم فى البروج منية وحمام؟

وكظاهرة احترام المشاعر فى الحياة الشعبية من خلال المجاملات فى المسرات، والمواساة فى الملمات، وذلك حين يؤكد مدى أهمية شعره فى حياة الأمم والشعوب، فيقول من بحر الخفيف[٤]:

كان شعرى الغناء فى فرح الشر ∴ ق وكان العزاء فى أحزانه

بالإضافة إلى ما سبق نلحظه أخيرا يشير إلى بعض العادات الشعبية النابعة من صميم البيئة المصرية، من ذلك: عادة انتشار الرقى والتمائم بين البسطاء، فيقول من بحر البسيط[٥]:

على جوانبها رفت تمائمنا ∴ وحول حافاتها قامت رواقينا

---

(١) مصرع كليوباترا:٩٣ .
(٢) الشوقيات : ١/ ١٥٩ ط بيروت (د.ت).
(٣) نفسه : ١/ ٢٤٤ ط مصر ١٩٧٠م.
(٤) نفسه: ٢/ ١٩٣ ط بيروت (د.ت).
(٥) نفسه: ٢/ ١٠٥ ط بيروت (د.ت).

فالمراد بالتمائم جمع تميمة، "وهى خرزة رقطاء تنظم فى السير، ثم يعقد فى عنق الصبى، دفعا للعين كما يزعمون، أما الرواقى جمع رقية، فهى التعوذات التى يرقى بها المريض ونحوه، وسط طقوس معينة، بنصوص عرفية غير شرعية، أما الرقية الشرعية فلها دعاؤها الخاص بها كما سبق"(١).

وإذا كان أهل البادية يتخذون شيخ القبيلة رمزا لهم، فأهل الريف يقتدون بهم حين يؤثرون من له الوجاهة والحل والعقد، يتخذونه كبيرا لهم، يرجعون إليه فى مهام الأمور .

ها هو ذا يشير إلى ذلك حين خلع الإنجليز عباسا، وولوا مكانه عمه السلطان حسين، فيقول من بحر الكامل(٢):

وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها ∴ ملكا عليهم صالحا مأمولا

ثالثا ـ الأخطاء العروضية:

لقد خانته عبقريته بالتورط فى بعض الأخطاء، من هذا اللون كما يلى :

اللجوء إلى البتر فى قوله من الكامل المجزوء(٣):

فإذا رأيت مشايخا ∴ أو فتية لك ساجدين
لاق الزمان تجدهم ∴ عن ركبه متخلفين

وفى قوله من بحر الكامل(٤):

لولا عوادى النفى أو عقباته ∴ والنفى حال من عذاب جهنم
لجمعت ألوان الحوادث صورة ∴ مثلت فيها صورة المستسلم

اللجوء إلى سناد الحذو فى قوله من بحر الكامل(٥):

حلفاؤنا الأحرار إلا أنهم ∴ أرقى الشعوب عواطفا وميولا

---

(١) ينظر هامش صفحة (٥٣) من هذه الدراسة، المعجم الوجيز: ٧٨، ٢٧٥، لسان العرب : ١/ ٤٤٨ .
(٢) الشوقيات: ١/ ٢١٥ ط مصر ١٩٣٩م.
(٣) نفسه: ٢/ ١٢١ ط مصر ١٩٣٩م.
(٤) نفسه : ٢/ ١٨٧ ط بيروت (د.ت).
(٥) نفسه : ١/ ٢١٥ ط مصر ١٩٣٩م.

أعلى من الرومان ذكرا فى الورى ∴ وأعز سلطانا وأمنع غيلا

وفى قوله من بحر الرمل[1]:

قم إلى الأهرام واخشع واطرح ∴ خلية الصيد وزهو الفاتحين
وتمهل إنما تمشى إلى ∴ حرم الدهر ومحراب القرون

وأخيرا يلجأ إلى سناد التوجيه، فيقول من بحر المتقارب[2]:

لكل زمان مضى آية ∴ وآية هذا الزمان الصحف
لسان البلاد ونبض العباد ∴ وكهف الحقوق وحرب الجنف

هذه كانت أخطاء الشاعر، وتلك كانت سقطاته، وهى لا تغض من شأنه ، ولا تقلل من شاعريته، ومدى نبوغه وعبقريته، فالشاعر بشر، من طبعه أن يصيب ويخطئ، والكمال المطلق لله وحده، وحسب شوقى أنه كان شاعر الشعب فى جميع مراحل حياته، ومظاهر الشعبية أخذت منه أسعد أوقاته، وما دفعه إلى هذا كله سوى الصدق والإخلاص لهذا الوطن المعطاء ، ولشبابه الخلص الأوفياء، رحم الله شوقيا أمير الشعراء، وجزاه عما قدم خير الجزاء، إنه سبحانه سميع الدعاء.

(١) الشوقيات: ١/ ٢٥٨ ط بيروت (د.ت).
(٢) نفسه: ١/ ١٥٩ ط بيروت (د.ت).

الخاتمة

أحمد ربى جل فى علاه، وأصلى وأسلم على خير من اصطفاه، سيدنا محمد بن عبدالله (ﷺ) وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد

فها نحن أولاء، قد عشنا هذه السياحة العلمية، فى رحاب أمير الشعراء ولمسنا مدى إخلاصه وتفانيه من أجل الشعب فى جميع مراحل حياته ، بدءا من القصر ،ومرورا بالمنفى ، وانتهاء بالعودة إلى الوطن بعد رحلة من المعاناة ، دامت نحو خمسة أعوام ، فكان خير السفراء بين الشعب والسلطة ، وأصدق الشعراء فى التعبير عن آمال الشعب وآلامه ، وكانت نهاية هذا البحث برصد بعض الأخطاء التى لا تغض من شأنه ، ولا تقلل من عبقريته ٠

وقد أسفرت تلك الدراسة ــ إثر هذا العرض الموجز ــ عن العديد من النتائج ،وتتمثل فيما يلى : ــ

- تذوق الشاعر طعم النعيم منذ نعومة أظفاره، وتقلب فى ثناياه وفى أعطافه ، بيد أن ذلك كله لم يعقه لحظة عن الاهتمام بالشعب فى جميع مراحل حياته ٠
- كان مفهوم الشعبية عنده يعنى الوعى الذاتى بنبض الجماهير من خلال التعبير الصادق عما تعانيه، والعمل على تحقيق آمالها، والقضاء على آلامها٠
- كان شاعر الشعب حقيقة، وشاعر القصر شكلا، حيث إن القصر بالنسبة إليه لم يكن غاية، وإنما كان وسيلة لتحقيق أسمى غاية ، وهى التلبية لمطالب الشعب العادلة، والتخفيف من آلامه وأحزانه٠
- كان شاعر الشعب فى مرحلة القصر، ولم يشغله القصر عن التحقيق لشعبيته، وحسبه أنه كان غيريا، حيث إن همومه لم

تكن ذاتية، وإنما كانت جماعية، بدءا من الاهتمام بالجمهور وبالصحافة، وانتهاء بمشاركة الشعب فى أفراحه وفى أحزانه.

- زيادة شعبيته فى مرحلة النفى، وإن كان لم يحرم من الحرية فى مرحلة القصر، إلا أنه فى هذه المرحلة يعود وجدانيا إلى شعبه ولكن بشكل آخر أكثر حرية، وأكثر انطلاقا ، حيث الإشادة بالحضارة العربية، والإبراز لقوة العاطفة الدينية والوطنية.
- التأكيد لشعبيته الجارفة فى مرحلة العودة من المنفى بدرجة تفوق كل ما سبق ، وكان ذلك على المستويين العربى والعالمى، حيث التذوق الحقيقى لطعم الحرية، وظهور العنصرين العربى واليونانى فى شخصيته الحقيقية.
- إذا كان شعراء العالم قد فتنتهم تلك الحضارة العربية بتاريخها وآثارها، وألموا بها إلماما عابرا، فإن شوقيا يعد الشاعر الوحيد بين شعراء الشرق والغرب الذى وقف بأناة وتأمل عميق أمام هذه الحضارة وآثارها؛ رغبة فى إذكاء الروح القومية فى وجدان الشعب المصرى، واستلهام العبر من تاريخ بلده ووطنه.
- رغم تورط الشاعر فى العديد من الأخطاء، إلا أن ذلك لا يغض من شأنه، كشاعر مطبوع، وعبقرى موهوب، وحسبه فى ذلك أنه بشر، والكمال المطلق لله وحده سبحانه.
- هذا عن النتائج، وأما عن التوصيات، فإنها تتمثل فى ضرورة الدراسة للجوانب المغمورة فى حياة الشعراء، قياسا على تلك الدراسة، وما أكثرها فى حياة الشعراء، فى العصر القديم والحديث على السواء، وذلك بتسليط الأضواء عليها، مع التحليل والاستقصاء لكافة أبعادها، وفى هذا إثراء للمكتبة الأدبية، وإغراء للباحثين بضرورة البحث والتنقيب فى المصادر العلمية، للوقوف على أسرار لغتنا العربية.

- **وبعد، ففى نهاية تلك الدراسة، أتوجه إلى الله سبحانه بالحمد والثناء على أن حالفنى التوفيق فى إتمام هــذا البحــث، وإنــى لأرفع أكف الضراعة إليه وحده أن يجعل هــذا الجهــد خالصــا لوجهه، إنه سميع الدعاء، ونعم المولى ونعم النصير.**

ثبت المصادر والمراجع
أولا ـ القرآن الكريم
ثانيا ـ المصادر والمراجع

- أبى شوقى ــ الأستاذ/حسين شوقى ــ مطبعة مصر ١٩٤٧م٠
- اتجاهات النقد الأدبى العربى أ.د/ محمد السعدى فرهود ــ دار الطباعة المحمدية ــ القاهرة ــ ط ثانية: ١٩٨٠م٠
- إحياء علوم الدين ــ الإمام أبوحامد محمد بن محمد الغزالى ــ المكتبة التجارية الكبرى ــ القاهرة ــ دار الريان للتراث (د.ت)٠
- الأدب العربى المعاصر فى مصر أ.د/ شوقى ضيف ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة ثامنة ١٩٨٣م٠
- الأدب المقارن ــ أ.د/ محمد غنيمى هلال ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ طبعة ثانية ١٩٦١م٠
- الأعلام ــ خيرالدين الزركلى ــ الجزء الأول ــ بيروت ــ طبعة ثالثة ١٩٦٩م٠
- تطور الأدب الحديث فى مصر ، من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ــ أ.د/ أحمد هيكل ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ط رابعة: ١٩٨٣م٠
- حافظ وشوقى ــ أ.د/ طه حسين ــ مطبعة الاعتماد ــ مكتبة الخانجى ــ القاهرة ــ طبعة ١٩٣٣، ١٩٦٦م٠
- رياض الصالحين ــ الإمام أبوزكرياء يحيى بن شرف النووى ــ دار القاسم للنشر ــ الرياض ــ السعودية ــ طبعة أولى ٢٠٠٢م٠

- شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ــ الأستاذ/ عباس محمود العقاد ــ دار نهضة مصر للطبع والنشر ــ القاهرة ــ طبعة ١٩٨١م٠
- شعراء الوطنية فى مصر ــ تراجمهم وشعرهم الوطنى والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم ــ الأستاذ/ عبدالرحمن الرافعى ــ الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ طبعة ثانية ١٩٦٦م٠
- شعر شوقى الغنائى والمسرحى ــ أ.د/ طه وادى ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة ثالثة: ١٩٨٥م٠
- شوقى أو صداقة أربعين سنة ــ الأستاذ/ شكيب أرسلان ــ مطبعة الحلبى ــ القاهرة ١٩٣٦م٠
- شوقى شاعر العصر الحديث ــ أ.د/ شوقى ضيف ــ دار المعارف بالقاهرة ــ طبعة ١٩٥٣م ، طبعة سادسة: ١٩٧٥م، طبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٩٦م٠
- شوقى شعره الإسلامى ــ أ.د/ ماهر حسن فهمى ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة ١٩٥٩م٠
- عن اللغة والأدب والنقد ــ رؤية تاريخية ورؤية فنية ــ أ.د/محمد أحمد العزب ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة أولى ١٩٨٠م٠
- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ــ الإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ــ تحقيق الأستاذين/ محمد فؤاد عبدالباقى ، محب الدين الخطيب ، مراجعة الأستاذ/ قصى محب

الدين الخطيب ــ دار الريان للتراث ــ مطابع الأهرام التجارية ــ القاهرة ــ طبعة أولى ١٩٨٦ ــ ١٩٨٧م٠

- فصول فى الشعر ونقده أ.د/ شوقى ضيف ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ طبعة ١٩٧١م٠
- فقه السنة ــ الشيخ السيد سابق ــ دار الريان للتراث ، مكتبة الخدمات الحديثة ــ القاهرة ــ طبعة ثانية ١٩٩٠م٠
- فى الأدب الحديث أ.د/ عمر الدسوقى ــ دار الفكر العربى ــ القاهرة ــ الجزء الثانى ــ طبعة سادسة ١٩٦٤م٠
- مصرع كليوباترا ــ الشاعر أحمد شوقى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ طبعة : ١٩٨٢م٠
- مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ــ الأستاذ/ عبدالرحمن الرافعى ــ مطبعة الشرق ــ القاهرة ــ طبعة ١٩٣٩م٠
- موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور ــ أ.د/ صابر عبدالدايم يونس ــ مكتبة الخانجى ــ القاهرة ــ طبعة ثالثة ١٩٩٣م٠
- الموازنة بين الشعراء ــ أبحاث فى أصول النقد وأسرار البيان أ.د/ زكى مبارك ــ مطبعة مصطفى البابى الحلبى ــ القاهرة ــ طبعة ثالثة ١٩٧٣م٠
- نظرات فى أدبنا المعاصر ــ أ.د/ زكى المحاسنى ــ وزارة الثقافة والإرشاد القومى ــ طبعة ١٩٦٢م٠
- نقد الشعر ــ أبوالفرج قدامة بن جعفر ــ المطبعة المليجية بالقاهرة ــ طبعة ١٩٣٤م، نسخة أخرى ــ تحقيق أ.د/ محمد

عبدالمنعم خفاجى ــ مكتبة الكليات الأزهرية ــ الطبعة الأولى ١٩٨٠م٠

- وطنية شوقى ــ دراسة أدبية تاريخية مقارنة ــ أ.د/أحمد محمد الحوفى ــ دار نهضة مصر للطبع والنشر ــ طبعة ثالثة ١٩٦٠م٠

ثالثا ـ الدواوين

- ديوان حافظ إبراهيم ــ ضبطه وشرحه الأساتذة : أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبيارى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ طبعة ١٩٨٠م ، ١٩٨٧م٠
- ديوان شوقى ــ تحقيق أ.د/ أحمد محمد الحوفى ــ دار نهضة مصر للطباعة والنشر ــ القاهرة ــ الجزء الأول ــ طبعة ١٩٨٠م ، الجزء الثانى ــ طبعة ١٩٨١م٠
- ديوان العباس بن الأحنف ــ تحقيق أ/ كرم البستانى ــ دار صادر ــ بيروت ــ طبعة ١٩٧٨م٠
- الشوقيات ــ شعر المرحوم أحمد شوقى ــ دار الكتاب العربى ــ بيروت (د.ت) نسخة أخرى ــ الجزء الأول والثانى ــ مطبعة مصر : ١٩٣٩م، نسخة ثالثة ــ المكتبة التجارية الكبرى ــ مصر ــ ط: ١٩٧٠م ٠

رابعا ـ المعاجم

- المعجم الوجيز ــ طبعة خاصة بمجمع اللغة العربية ــ القاهرة ــ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ــ ط ٢٠٠٥م٠

- لسان العرب ــ جمال الدين بن منظور ــ تحقيق الأساتذة: عبدالله على الكبير ، وآخرون ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ط: ١٩٧٩م٠

خامسا ـ الدوريات

- مجلة أبوللو ــ السنة الأولى ــ العدد الرابع ــ ديسمبر: ١٩٣٢م٠
- مجلة فصول ــ مجلة النقد الأدبى ــ عدد خاص عن شوقى وحافظ ــ المجلد الثالث ــ الجزء الأول ــ أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة ١٩٨٢م، والجزء الثانى ــ يناير، فبراير، مارس ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ طبعة ١٩٨٣م٠